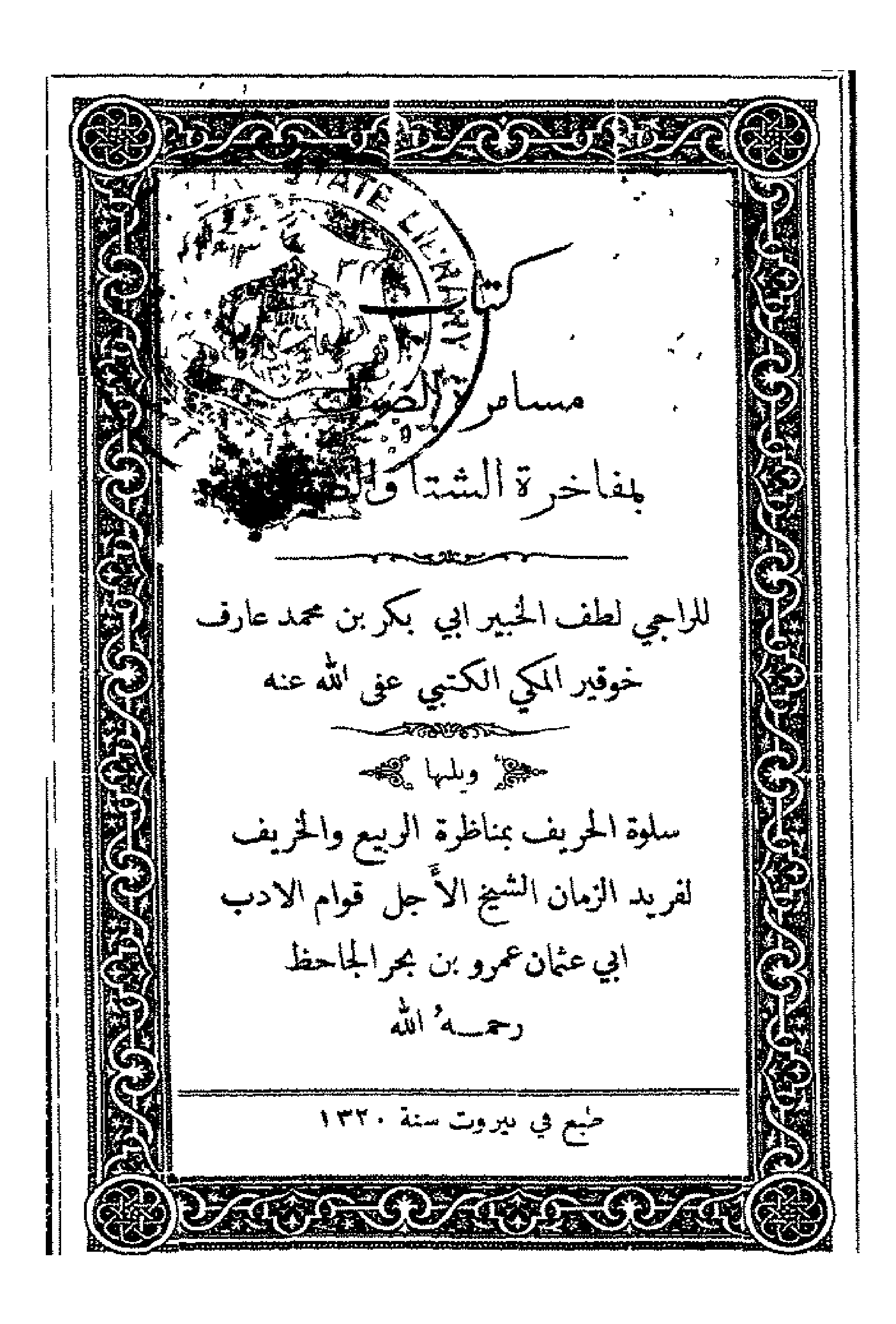


كتاب مسامرة الضيف بمفاخرة الشتا والصيف

للراجي لطف الخبير ابي بكر بن محمد عارف
خوقير المكي الكتبي عفى الله عنه

ويليها

سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف

لفريد الزمان الشيخ الأجل قوام الادب
ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
رحمه الله

طبع في بيروت سنة ١٣٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ضرب للناس الامثال . وارشد لذكره في كل حال في الشتاء والصيف . سبحانه من اله تفرّد بصفات الكمال . وتجلى بنعوت الجلال والجمال . من غير تشبيه وكيف . والصلاة والسلام على الداعي اليه بالحال والقال . بالحكمة والموعظة الحسنة وحسن الجدال . والكتاب والسيف . المنقذ من النار والضلال . المرشد لمكارم الخصال . واكرام الضيف . وعلى آله السادة الابطال . المعروفين بالمعروف والنوال . العادلين عن الحيف . واصحابه الذين بذلوا في سبيله النفس والمال . والتابعين لهم في احسن منوال . المميزين للزيف . ما دام طيف الخيال يختال . في ميدان الفكر وعالم المثال . وحبذا من طيف . « اما بعد » فقد جرت عادة الفضلاء في كل زمان . ومضت سنة النبلاء في كل مكان . بتحرير المقالات الادبية . وتحبير المقالات العلمية . والمساجلات اللطيفة . في القوالب الظريفة . مع الاستشهاد بالاشعار الرائقة . وايراد الامثال الفائقة . والحكم الغريبة . والنوادر العجيبة . فيجتمع من ذلك حكايات مطربة . وقصص مرقصة معجبة . وقد يجرون ذلك على لسان الجمادات والحيوانات . حتى على لسان العقلاء السادات . تمثيلاً باحوال مفروضة ومتخيلة . ومتضمنة لنصائح ومواعظ جزلة . وليس ذلك من الكذب بحال . ولا يذم ولا يعاب . فقد ضرب الله الامثال . وقال في قصة داود عليه السلام . خصمان بغى بعضنا على بعض . الى قوله وعزّني في الخطاب . بل لا يخفى ان ذلك الاسلوب . محبوب

ومرغوب . وله وقع في القلوب . ينفس عنها الكروب . وتشتاق اليه النفوس وترغب . وتنشط لسماعه وتطرب . ويحصل به التمرين للمبتدي والتدريب . على الانشاء والتأديب والتهذيب . فمن اجل ذلك اردت ان أجرّب نفسي . واجرّ ابناء جنسي . على الدخول في هاتيك المسالك

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم * ان التشبه بالكرام فلاح

فعملت هذه المقامة اللطيفة . والمقالة الظريفة * وسميتها ❋ مسامرة الضيف . بمفاخرة الشتا والصيف ❋ راجياً ان يفتح الله لنا الابواب . وان يهدينا الى الصواب . وهذا اوان الشروع في المقال . في واقعة الحال

بينما انا ذات ليلة في أرق * وضجر شديد وقلق . مما اقاسيه من حر السنبله . واتجرعه من حرارتها المقتله . اذ تذكرت فصل البرد . وعيشه المنيء وعرفه الورد . وتمنيتُ اني كنت فيه مشمولا بشملة او بُرد

وقلت مادحاً له

نعم الشتاء وحبذا * زمن الهنا والراحة

طاب العناق به اذا * دار الحبيب براحتي

وبينا انا في تلك الحال . وصرت بين اليقظة والنوم الحال . اذ جاءني طيف خيال . في صورة اسد مغتال . وقال اني انا الحر . والقيظ والصيف الفعاّل . والضيف الحر في الفعال . وانتم الى امام فعاّل . احوج منكم الى امام قوّال . لا تثبتون على حال ولا تعرفون قدر الرجال ولله در من قال . واحسن في المقال

يتمنى المرء في الصيف الشتا * فاذا جاء الشتا انكره

ليس يرضى المرء حالا واحداً * قُتل الانسان ما اكفره

تضجرون من جيرتي . وتضجون من حرارتي . وانتم تجدون اللذة العريقة . اذا قابلتموني بالماء والثياب الرقيقة . ورقيتم لاجلي المواضع الرفيعة

وتفسحتم في الرياض البديعة . ولكن ستذكرون ما اقول لكم . وتعلمون رفقي بكم . وعدم تكليفي لكم . اذا جاءكم البرد . ولظاكم بناره وسحقكم مبرده بالبرد . وجاءكم بجنوده وصعق عليكم بالصواعق والرعد . وكلفكم ما لا طاقة لكم به من كثرة الطعام . والفرش والملابس العظام . واذكروا قول شاعركم الهمام

توقَّ من الشتاء ولا تخاطر * بنفسك قائلا اني جليدُ
فرضنا ان جسمك من حديد * فهل يقوى على البرد الحديدُ

واذكروا اذا قام احدكم الى شربة ماء . فلا يكاد يسيغه ولا يتجرعه من الاناء . كما تمثل قائلكم

لو اختصرتم من الاحسان زرتكم * والعذب يهجر للافراط في الخصر
ألم تقل بيا الفخر . يا ابا بكر

جاء الشتاء ببرده * سحق الوجوه ببرده
حبس الانام بكنه * اثقلهم من برده
لظاهم من ناره * ادماهم بفرنده
ابدى الزكام بأنفهم * اعشى العيون برمده
جلب الغموم بغيمه * رعب القلوب برعده

فما اتم كلامه . وقضى مرامه . الا وقد حضر طيف خيال ثاني . فقال اعوذ برب المثاني . من كل ظالم وشاني . ومن حسود لا يقدر شاني . وجاهل لا يعرف مكانتي ولا مكاني . ثم انشد قائلاً

واذا ما خلا الجبان بأرض * حاول الطعن وحده والنزالا

ثم تنفس وتمثل في الحال وحاله قد حال

وقال السها للشمس انت خفية * وقال الدجى يا صبح انك حائل
وطاولت الارض السماء سفاهة * وفاخرت الشهب الحصى والجنادل

فيا موت زر ان الحياة مريرة * ويا نفس جدّي ان دهرك هازل

ثم قال اني انا الشتا والقر والبرد . تعاسني لا تحصى ولا تعد . اذا جاءت ايامي . انتصبت اعلامي . واضرمت ناري . ورأيت الضيوف حولها في ليلي ونهاري . في البيوت والصحارى . ورأيت الناس يهنون بعضهم . في خروج عدوهم . ووصولي اليهم . فهذا يتمثل . وهذا ينشد ويترسل . جاء الشتاء وادبر الحر . هنيء الطعام وساغت الخمر . فرحت القلوب بوصولي . وامتلأت بشرا . وشرع الكرام يخرجون مدخرا . ويعطفون علي الفقرا . حتي قال قائلهم شعرا . ويجمع كافاتي مفتخرا . وناهيك بذلك فخرا

جاء الشتاء وعندي من حوائجه * سبع اذا القطر عن اوطارنا حبسا
كنٌ وكيس وكانون وكاس طلا * مع الكباب (وكف) ناعم وكسا

وقال بعض الدهاقين آكل فيه ما جمعت . واستمتع بما ادخرت واي شيء احسن من كانوني في كانون . ومن لبس الخز والسمور . والقعود في الطوارم مع الاحباب . وتناول الدراج والكباب . وقال بعض الكتاب

ليت الشتاء يعود لي بنعيمه * ان الشتاء غنيمة الكتاب
قصر النهار وطول ليل ممتع * فيه نلذ بقينة وشراب

وكان للمتوكل بيت مال يسميه بيت مال الشمال . فكلما هبت الريح شمالا . تصدق بالف درهم . وقد اشتهر اني على قدر الجسم والمال مقسم فالفقير يرزقه الله . ويسخر له اهل الكرم . وربما اعتاد جسمه العري فلا يهتم . فقد سئل عريان عما يجده في يوم قسر . فقال ما عليَّ منه كبير مؤنة . قيل له كيف . قال دام لي العري فاعتاد بدني . ما تعتاده وجوهكم . وقيل لآخر ما اصبرك على البرد . قال كيف لا يصبر

عليه . مَن طعامه الريح . وسراجه الشمس . وسقفه السماء . ورأى الاصمعي رجلا يختال في ازير في يوم قرّ فقال من انت يا مقرور . فقال ابن الوحيد . امشي الخيزلى . اي متثاقلا . ويدفئني حسبي

فلما سمع كلامه الصيف . تلهب من الحر . وقام وقعد ثم حمل وكر . واشار يقول . و يجول ويصول

في زخرف القول تزيين لباطله * والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول هذا مجاج النحل تمدحه * وان ذممت تقل قيء الزنابير
مدح وذم وذات الشيء واحدة * ان البيان يرى الظلماء كالنور

يا للعجب كم قتل هذا الرجل وسلب . كم فتك في عباد الله الاصفياء والفقر الاغنياء . وبضدها تتميز الاشياء . هذا عدو الناس . ونذير الهلاك والباس . كم فيه مغرَم . وكثرة انفاق الدرهم . في الطعام الذي يصير فيه الشره . والملابس التي تدفع ضرّه . وتعيي القوي حملا . فكأنما يحمل ثقلا . فترى الهزيل . كالسمين الثقيل . وقد قال الجاحظ الشتاء عند الناس . هو الكلب الكلب . والعدو الحاضر . يتأهب له . كما يتأهب للجيش و يستعد له . كما يستعد للحرق والغرق . ولو استقصيت معائبك ضاق الورق . وسل الجرائد عمن يهلك بك في كل عام . في اوربا مع التمدن والغنا والانتظام اما بلغك ان امرأة هناك قتلت نفسها جزعا من دخولك . وخوفا من ان يكون موتها بوصولك . اما رأيتهم يتعلقون في حبال . على مستوقد النار . في الليل والنهار . لا يذوقون المنام . حتى يأتيهم الحمام . والاغنياء يهربون . وعن بلادهم يبعدون . ولا تدلس بقولك . يخرج الكرام مدخرا الخ . نعم يخرجون امدادا . ورحم الله من قال انتقادا

ذهب الذين يعاش في اكنافهم * وبقيت في خلف كجلد الاجرب

وهذا القائل هو الشاعر لبيد . آلى على نفسه كلما هبت الصبا ان ينحر ويطعم . وربما ذبح العناق . اذا ضاق الخناق . والزم ذلك نفسه في الاسلام . فلما كانت ايام عثمان . رضي الله عنه جعل ديوان لبيد بالكوفه . يا هذا علمت الناس الكرم فأفقرتهم . وعرضتهم للذلة والمسئلة واهنتهم . كما قال الشاعر

الجود افلسهم وغير حالهم * واليوم ان سألوا النوال تمحلوا

وقال الاخر

جاء الشتاء وما عندي له ورق * فيما عددت وما عندي له خلعُ
كانت فيدٌدها جودٌ ولعت به * وللسا كين ابضاً بالندى ولعُ

فبئس هذا الكرم . الذي اعقب الحسرة والندم . وجعل صاحبه في حيز العدم . كما قال ابن المعتز . الخليفة الاعظم

يارب جود جرَّ فقر امرئ * فقام في الناس مقام الذليل
فاشدد عرى مالك واستبقه * فالبخل خير من سؤال البخيل

وقال الاخر

اشفق على الدرهم والعين * تسلم من الغيبة والدين
فقوة العين بانسانها * وقوة الانسان بالعين

وقال الاخر

في كل شيء سرف * يكره حتى في الكرم
ولربما القائل لا * افضل من الفي نعم

وقال الاخر

لحفظ المال خير من عطاء * وسعي في البلاد بغير زاد
واصلاح القليل يزيد فيه * ولا يبقى الكثير مع الفساد

وقال محمد بن الجهم : اتركوا الجود للملوك . فانه لا يليق الا بهم .

ولا يصلح الا لهم . ومن عارضهم في ذلك افتقر وافتضح . فلا يلومنّ الا نفسه . وكان الكندي يقول قول لا يدفع البلا . وقول نعم يزيل النعم . ثم اني اراك تلهج بذكر الكرم والكرام . كانك خسيس طبع . تنظر لما في ايدي الانام . واني بحمد الله قد افدتهم كنز القناعة . والزمتهم العفة خير بضاعة . ولم اكشف عن احد قناعه . ولسان حالي يقول على رؤس الجماعه

اذا اعطشتك اكف اللئام * كفتك القناعة شبعًا وريًا
فان اراقة ماء الحيا * ة دون اراقة ماء المحيا
فكن رجلاً رجله في الثرى * وهامة همته في الثريا

وكذا يقول

امطري لؤلؤا جبال سرنديـ * ـب وفيضي آبار تكرور تبرا
انا ان عشت لست اعدم قوتًا * ولئن مت لست اعدم قبرا
همتي همة الملوك ونفسي * نفس حرّ ترى المذلة كفرا

وكذا يقول

وما شيء باثقل وهو حق * على الاعناق من منن الرجال
فلا تفرح بشيء تشتريه * بوجهك انه بالوجه غالي

وكذا يقول

قنع من الدنيا بميسورها * واشرب قراح الماء بالكف
وكف نفسًا طال اهامها * فانما الراحة بالكف

وفصل الخطاب في هذا واولى . قول صاحب اليد الطولى . صلى الله عليه وسلم : اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى . تفتخر ياهذا بشعر من افتخر بجمع الكافات وقد افتخر في زمني بعض الادباء بجمع الرآت حيث قال آتيا بالسحر الحلال

عندي فديتك رآت ثمانية * التي بها الحرّ ان وافى وان وَرَدا
راح وروح وريحان وريق رشا * ورفرف ورياض ناعم وَرِدا

وازيدك قول بعض السادات . منوّنًا بالنونات

للصيف سبع من النونات رائقة * يا حسنها من ذوات اوقيت دنسا
نَور ونُور ونوم فوق نمرقة * ناعورة ونسيم طيب ونسا

ولله در من قال

يقولون كافات الشتاء كثيرة * وما هي الا واحد غير مفترى
اذا كان كاف الكيس فالكل حاصل * لديك وكل الصيد في باطن الفرا

وما احسن قول الاخر

وكافات الشتاء تعد سبعًا * وما لي طاقة بلقاء سبع
اذا ظفرت بكاف الكيس كفي * ظفرت بمفرد يأتي بجمع

واين انت يامن يتفاخر من قول الاخر

جاء الشتاء وما الكافات حاضرة * وانما حضرت منهن ابدال
قِلٌّ وَقرٌّ وقلبٌ موجعٌ وقلا * وقادر هاجر والقيل والقال

وقول الاخر

جاء الشتاء ببرد لا مردّ له * ولم يطق حجر قاس يقاسيه
لا الكاف عندي ولا الكانون متقد * كني ظلامي وكيسي قل ما فيه
دع الكباب وخل (الكنـة) وا اسفا * على كسا انغطى في دياجيه

وقول الاخر

هجم البرد والشتاء وما أمْ * لِكُ الا رواية العربيه
وقميصًا لو هبت الريح لم تبـ * ـق على عاتقيّ منه بقيه

وقول الاخر

جاء الشتاء وليس عندي درهم * وبمثل هذا قد يصاب المسلم

لبس العلوج خزوزها وفرائها * وكأنني بفناء مكة محرم

وقول الاخر

ليس عندي من آلة البرد الا * حسن صبري ورعدتي وقنوعي

فكأني لشدة البرد هرٌ * يرقب الشمس عند وقت الطلوع

قيل لاعرابي ما اعددت للبرد · قال طول الرعده · وتقرفص القعده وذرب المعده · ونظمه بعضهم في قوله

قيل ما اعددت لل * برد وقد جاء بشده

قلت دراعة عري * تحتها جبة رعده

وقال الاخر

قال هل اعددت شيئاً * للشتا قد جا بعنفِ

قلت ثوباً من مدام * كلما مدت تدفي

قال الاصمعي : رأيت اعرابيا قد حفر قرموصا اي حفرة قعد فيه في اول الشتاء · فقلت ماصيرك الى هذا · قال شدة البرد · وانشأ يقول

ايا ربِّ هذا البرد اصبح كالحاً * وانت بصير عالم ما تعلم

لئن كنت يوماً في جهنم مدخلي * ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

فظهر بحمد الله اني انا الخل الموافق · والصديق الصادق · والطبيب الحاذق · اجتهد في مصلحة الاصحاب · وارفع عنهم كلفة حمل الثياب واخفف اثقالهم · واوفر اموالهم · واكفيهم المؤنه · واجزل لهم المعونه · واغنيهم عن شراء الفراء · واحقق عندهم ان كل الصيد في جوف الفرا كما قاله الحبيب بن حبيب

وملبسي كل ظريف · وشفاف خفيف · مثل الشاش · وما يحصل به الانتعاش · اما سمعت ما قيل

الشاش في الصيف جنة * ومن اذى الحرّ جنه

لكنني نعتريني * بـه لدى البرد جنه

فلما سمع الشتا هذه المقالة . شمر وضم اذياله . وتنفس الصعداء وقال يا عدو السعداء . ما هذه الوقاحة . والمجازفة بالصراحة . رمتني بدائها وانسلت . يرى القذاة في عين اخيه . ولا يرى المسلة في عينه تدميه يا طالما قتل هذا المجازف كثيرا . ولا ترك اميرًا ولا فقيرا . ولا كبيرا ولا صغيرا . جلب اليهم اشياء . من السرسام وعضال الداء . وكلف الاغنياء السفر الى المواضع البارده . فهربوا منه وصرفوا المصاريف الزائده . وكلف كل شخص حمل مروحة يطرده بها . ويخفف عن نفسه ما نابها من الكرب وحلّ بها . سيما اذا انضم اليه حر الهوى والهوان وحر البعاد والهجران . ومع ذلك يخرج الهوى من مروحته حارا كونتسه اما سمعت بقصة الفقير الذي عشق مملوك السلطان الاشرف . فحجبه عنه ثم رق له حين على الموت اشرف . فامره بالوصول اليه . فجعل يروح عليه فرفع الفقير رأسه وتنفس . وانشد وكان آخر النفس

روّحني عائدي فقلت له * لا لا تزدني على الذي اجد
اما ترى النار كلما خمدت * عند هبوب الرياح تتقد

وقال العلاّمة البدر الساري الشيخ عبد الحفيظ القاري حفظه الباري

ايظن ملسوع الفؤاد بانه * ان هز مروحة يخف لهيبه
او ما درى ان الهواء يزيده * لهبًا اذا ما غاب عنه حبيبه

ومثله للفاضل الاديب الشيخ عثمان الراضي

ولقد تروّح يبتغي * بردًا لكبد منه حرى
فاثار بالممدود مذ * صور الهوى فازداد حرا

وله ايضًا

يا من تروّح يبغي * من الهواء برادة

ان الهواء يقينا * هو الهوى وزياده

وقال اخر

ومروحة جعلت راحة * لحر الجبين وتلهيبه
كأن سليمان اهدى لها * نسيما من الريح تسري به

وقال اخر

ومروحة جاء النسيم بها يجري * يبرد اكبادا اذيبت من الحر
حوتها يد كالبحر والبحر دونها * واطيب ما جاء النسيم من البحر

وقد كتب بعض الادباء الى رفيقه : اشكو الى مولاي صيفاً لا يطيب معه عيش . ولا ينفع به ثلج ولا خيش . وانظروا ايها الناس الادبا الى هذا الذي يرى رأي اهل اوربا . يتخذ البخل مذهبا . ويجعله شرفاً ومنصبا . ينسى ما افترضه الله من الزكاه . طهر الله اعتقاده وزكاه . الم يسمع ما جاء في ذم البخل . ما هو اشد من لسع النحل . قال الشعبي ما افلح بخيل قط . اما سمعتم قول الله تعالى «ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون» . وقال المأمون لمحمد بن عبد الله المهلبي . بلغني انك متلاف . فقال يا امير المؤمنين منع الجود . سوء ظن بالمعبود . وهو تعالى يقول : وما تنفقوا من شيء فهو يخلفه . وهو خير الرازقين . ويقال البخيل ابدا ذليل . ويقال لا مروءة لبخيل . ويقال شر اخلاق الرجال البخل والجبن . وهما من اخلاق النساء . وقال الجاحظ البخل والجبن غريزة واحدة يجمعهما سوء الظن بالله . وقال غيره . البخل يهدم مباني الكرم . وقال الشاعر

لا يسود امرؤ بخيل ولو مس بيافوخه عنان السماء

وقال اخر

ذريني فان البخل يا ام هيثم * لصالح اخلاق الرجال سروق

وما انت ايها الصيف الا كما قيل : يمنع دره . ودر غيره . ويحسد ان يعطي . ويزهد ان يعطى . قال الشاعر

وغيظ الحسود على من يجود * لاعجب عنديَ من بخله

واني اوصي احبابي ارباب الهمم بلزوم الكرم . واذا قعد الزمان بواحد منهم . فليطلب حاجته من الامراء ومن علا مجدا وقدرا

وقال الشاعر

اذا ما طلبت نوال الفتى * وقد نالك الدهر من شده
فلا تسألن فتى كالحسا * اصاب الرياسة من كده

وقال الاخر

دعوني ورسمي في العفاف فانني * جعلت عفافي في حياتي ديدني
واعظم من قطع اليدين على الفتى * صنيعة برّ نالها من يدي دني

فلما سمع ذلك القيظ . كاد ان يتميز من الغيظ . وقال يا هذا ما اجهلك . وما اعقل عقلك . تجاوزت طورك . وما عرفت قدرك . ما مرض من مرض . الا بقضاء وقدر . وترك المحافظة على اسباب الصحة والنظر فيما يصلحني ويناسبني . وما يليق بزمني . ورحم الله من قال

صبرًا على حلو الزمان ومرّه * واعلم بان الله بالغ امره
والحر من يلقى الخطوب بصدره * وبصبره وبحمده وبشكره
والحر سيف والذنوب لصفوه * صدىء وصيقله نوائب دهره
ليس النوائب غير افعال امرئ * يجزى به من خيره او شره
واذا اصبت بما اصبت فلا تقل * اوذيت من زيد الزمان وعمره
ولرب امرٍ قد امضك عسره * ليلا فبشرك الصباح بيسره
ولرب ليلٍ في الهموم كدمل * صابرته حتى ظفرت بفجره

وما سافر الناس الى الاراضي الباردة فرارًا مني . فاني احل بها وهي لا تستغني عني . بل يسافرون لجلب المكاسب . ورؤية العجائب .

وتحصيل التجارب . ونزهة انفسهم . ورياضة افكارهم . في تلك الرياض وهاتيك الحياض . وتناول الفواكه الشهيه . والثمار الجنيه . التي طالما اشتاقت اليها نفوسهم الابيه . فلم يظفروا في زمانك بتلك الامنيه . وقد قيل :

تنقل فلذات الهوى في التنقل * ورد كل صاف لا تقف عند منهل

ولا اسفًا فيما يصرف في ذلك . فليس لك من مالك الاّ ما اكلت فافنيت . او لبست فابليت . او تصدقت فابقيت . وبذلك يظهر فضل الغني . وجمال عيشه الهني . وهكذا حالي . بمعنى وهو حالي . لا بد لفضلاء الناس . والسادة الاكياس . ان يتمشوا في تلك الرحاب الفسيحه والرياض النضرة المليحه . مع هاتيك الوجوه الصبيحه . والاصوات الحسنة المريحه . والتي للهموم مزيحه . فيزهو زمانهم . ويعلو شانهم . وتصفو اذهانهم . وترتاح نفوسهم . ولا تضيق صدورهم . بالركون الى الكن الذي هو عن زينة الدنيا مستكن . المطلوب في زمانك . الذي تغلق فيه الابواب . وتسد فيه النقاب . حتى كان صاحبه ليل مظلم . وصاحبه في حبس مؤلم . وهذا شاعر زماني يترنم

لم لا اهيم الى الرياض وطيبها * واظل منها تحت ظل ضافي

والزهر يلحظني بثغر باسم * والماء يلقاني بقلب صافي

اما ما ذكرت من امر المراوح . التي فضلها غاد ورايح . فهي من محاسني ومن فضل زمني . حسناء لعبت بها الشمول . وغدا لسان حالها يقول

انا في الكف لطيفه * مسكني قصر الخليفه

انا لا اصلح الا * لظريف او ظريفه

او وصيف حسن الـ * قد شبيه بالوصيفه

وكذا يقول وقد حفها القبول

انني اجلب الريا * ح وبي يذهب الخجل
وحجاب اذا الحبيـ * ـب ثنى الرأس للقبل

وكذا يقول وقد جرت الذيول

انا المحبوبة العظمى * اذا ماالصيف قد اقبل
واما في الشتا الجافي * فلا اهدى ولا اقبل

اما سمعت ما حكاه ابو الفوارس قال كنت يوماً عند السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب فحضر رسول صاحب المدينه . ومعه قود وهدايا فلما جلس اخرج من كمه مروحة بيضاء عليها سطران بالسعف الاحمر وقال الشريف يخدم مولانا السلطان ويقول هذه المروحة ما رأى مولانا السلطان ولا اخذ من بني ايوب مثلها فاستشاط السلطان صلاح الدين غضبا فقال الرسول يا مولانا السلطان لا تعجل قبل تأملها وكان السلطان ملكا حكيما فتأملها فاذا عليها مكتوب

انا من نخلةٍ تجاور قبراً * فاق من فيه سائر الناس طرا
شملتني عناية القبر حتى * صرت في راحة ابن ايوب أقرا

واذا هي من خوص النخل الذي في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فقبلها السلطان ووضعها على رأسه وقال لرسول صاحب المدينة صدقت فيما قلت من تعظيم هذه المروحة . وما احسن قول بعضهم

ومحبوبة في القيظ لم تخل من يد * وفي القر تسلوها اكف الحبائب
اذا ما الهوى المقصور هيج عاشقاً * اتت بالهوا الممدود من كل جانب

وقال الآخر

يا سائلي عن نسيم طيّ مروحة * اهدت سروراً بترجيع وترويح
اما ترى الخوص اهدى من مراوحه * ما اودعته قديماً نسمة الريح

والطف منه قول الآخر

نهيت الحبيب عن المروحه * لمعنى وحسبك ان اشرحه
لقد خفت ان مرّ فيها النسيم * ولامس خديه ان يجرحه

وقال الآخر واجاد

ومروحة اهدت الى النفس روحها * لدى القيظ مبثوثًا باهداء ريحها
روينا عن الريح الشمال حديثها * على ضعفه مستخرجًا من صحيحها

وقال الآخر

ومبثوثة في كل شرق ومغرب * لها امهات بالعراق قواطن
يحرك انفاس الرياح حراكها * كأن نسيم الريح فيهن كامن

ولله در القائل في المستديره

ومروحة ان تاملتها * ترى فلكا دائرًا في اليد
وتطوى وتنشر من حسنها * فتشبه قنزعة الهدهد

واما مروحة الخيش فقد قال فيها ابو نواس لعنان جارية الناطفي اجيزي : العيش في الصيف خيش . فقالت : اذ لا قتال وجيش . وقد ذكرها الحريري في مقاماته حيث قال اسمعوا وقيتم الطيش . ومليتم العيش وانشد ملغزًا في مروحة الخيش

وجارية في سيرها مشمعلة * ولكن على اثر المسير قفولها
لها سائق من جنسها يستحثها * على انه في الاحتثاث رسيلها
ترى في اوان القيظ ينطف ماؤها * ويبدو اذا ولّى المصيف نحولها

وهذه المروحة شبيهة بشراع السفينة تعلق بالسقف ليتروّح بها وتبلّ بالماء وترش بماء الورد ويشد فيها حبل يدار به مشيها فاذا اراد الرجل النوم جبذها بحبلها فتذهب بطول البيت وتجي فيهب منها على صاحبها نسيم طيب الرائحة فيذهب عنه الاذى ويستطيب النوم وهي فوقه ذاهبة جائيه . ولذلك سماها الحريري جاريه

وفيها قال بعضهم

وخيش كما انجرت ذيول غلائل * مصندلة يختال فيهـا الكواعب
وقد اطلعت فيها الشمائل وانثنت * مقيدة عن جانبيها الجوانب

ومن ملح الصاحب بن عباد قوله لابي العباس الحارث في يوم قيظ مايقول الشيخ في قلبه وهو الخيش جناسا مقلوبا وقال الشهاب ابن ابى حجلة المروحة محدثة في زمن بني العباس وكان سبب حدوثها ان هارون الرشيد دخل يوماً على اخته علية بنت المهدي في قيظ شديد فوجدها قد صبغت ثوبًا من زعفران وصندل ونشرته على حبل ليجف فجلس هارون قريبا من ذلك فجعلت الريح تمر على الثوب فتحمل منه ريحًا بليلة عطرة فوجد لذلك راحة من الحر واستطابه فامر ان يصنع له في مجلسه مثله والمروحة منه جاءت واما مانسبته الي من البخل فهو افتراء . وكذب وبهتان بلا مراء . انما عنيت بكلامي الذي سلف . ذم السرف الذي يعقبه التلف . كما جاء عن السلف . وقد قال تعالى في كتابه المبين . ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وانت قد اوصلتهم الى حد السؤال . واليه ارشدتهم ألم تسمع من قال

ما اعتاض باذل وجهه بسواله * عوضًا وان نال الغنى بسوآل
واذا السوآل مع النوال قرنته * رجح السوآل وخف كل نوال

وقال الاخر

لنقل الصخر من قلل الجبال * احب الي من منن الرجال
يقول النـاس كسبك فيه عار * فقلت العار في ذل السوال

ويروى ان لقمان قال لابنه يابني حملت الصخر والحديد . فلم ار اثقل من الدين . واكلت الطيبات . وعانقت الحسان فلم اصب الذ من العافية . وذقت المرارات . فلم اجد امرّ من الحاجة الى الناس .

وقال الاخر

وذقت مرارة الاشياء جمعا * فما طعمٌ امرُّ من السوآل

وقد قيل جلَّ في عينيك من استغنى عنك . وقيل من لم يستوحش من ذل السوال . لم يأنف من ذل الرد . وكان مطرف يقول اذا كانت لاحدكم حاجة فلا يواجهني بها فاني أكره ان ارى فيكم ذل المسألة . ولكن ليرفعها في رقعة . فانَّ الشاعر قد صدق في قوله .

يا ايها المعتاد بذل الجمال * وطالب الحاجات من ذي النوال
لاتحسبن الموت موت البلا * وانما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا * اشد من ذاك لذل السوال

وقال اخر

لا تغضبن على امرء * لك مانع ما في يديه
واغضب على الطمع الذي * استدعاك تطلب مالديه

وقال اخر

لاتكن طالباً لما في يد النا * س فيزورّ عن لقاك الصديق
انما الذل في سوالك للنا * س ولو في سوال اين الطريق

وقال اخر

من عف خف على الصديق لقاءه * واخو الحوائج وجهه مملول
واخوك من وفّرت مافي كيسه * فاذا اعترضت له فانت ثقيل

فلما سمع الشتاء . قال مازلت تلزني يافتي . بسيء الخطاب . وتموه الجواب وترئي الصعاب . وانت بعيد عن الصواب . ولولا اني موجود . لم تفرح بموجود ولا بعود . ولم تفتخر بخضرة الرياض . وتدفق مائها الفياض . الم تسمع ما قيل ايها الثقيل .

خضرة الصيف من بياض الشتاء * وابتسام الثرى بكاء السماء

فما انت الا لئيم . خب ذميم . لاتعرف المعروف . بل ولا انت معروف

ارى الاحسان عند الحر دينا * وعند النذل منقصة وذما

كماء القطر في الاصداف در * وفي جوف الافاعي صار سما

ولو نظرت الى نفسك . وعرفت ماقيل في وصفك مافهت ببنت شفه ولا نطقت بذاك السفه . ولا خرجت الى ميدان المفاخرة . ولا تعرضت للمناظرة فانظر الى قبيح عملك . وسوء فعلك . اذا جاء النهار . فتحت فيه ابواب النار . واشتد الكرب والقلق ونضحت الابدان بالعرق . فغير لون الثياب وعلاها . فان كانت جديدة حلها وابلاها . او قديمة زاد في تمزيقها وبلاها . وتخرج منها رائحة يعظم بلاها كما قال فيه ابو بكر هذا (١)

عرق نقاطر في ثياب * كالبول رائحةً ولونا

فيذيبها ويميت نفسا * يؤذي الورى ويزيد هونا

وتعظم حرارة الشمس . وربما ادخلت الرمس كما قال بعضهم الشمس تشحب اللون . وتغير العرق . وترخي البدن . وتثير المرة ان احتجمت فيها امرضتك . وان اطلت النوم فيها افلجتك . وان قربت منها صرت زنجيا . وان بعدت عنها صرت صقليا . وكما قال الشاعر

يقال تركت الذي حسنه * يكاد يخجل شمس الضحى

فقلت وشمس الضحى تحتمي * اذا بسطت في المصيف الاذى

ولله در القائل

في خلقة الشمس واخلاقها * شتى عيوب سنة تذكر

من صبحها النور لامسائها * مغاير الاشياء لايفتر

رمداء عمشاء اذا اصبحت * عمياء عند الليل لاتبصر

ويغتدي البدر لها كاسفاً * وجرمه من جرمها اصغر

حرورها في القيظ لاتتقى * ونورها في القر مستحقر

«١» قوله ابو بكر هذا اي الحاضر مجلس المفاخرة والراوي للمناظرة وهو المتنبي وهو المراد في كل ماسيأتي انتهى

ليست بحسناء وما حسن من * يقصر عنه اللفظ اذ يخبر

وصار الماء حارا كانه من حميم . وشاربه من سكان الجحيم . ينسيه مايجده من التهابه . ان يحمد الله على شرابه . وخرج السموم بتلهب ويزأر . ويطرق الابواب . ويشوي الوجوه . وينسف التراب . فتشتد به الحرارة والغموم . وتضاعف به على العاشق الهموم . كما قال ابو بكر هذا

بعادك والهوى وطيب عذل * بموم في سموم في بموم

صدودك والوشاة ومر عيشي * سموم في بموم في سموم

وقال الاخر

رب يوم هواؤه يتلظى * فيحاكي فؤاد صب متيم

قلت اذ خد حره حر وجهي * ربنا اصرف عنا عذاب جهنم

فقام الصيف وقد تفصد عرقا . وصوت سمومه فرقا . وقال ايها الشتاء الخابط خبط عشواء . الراكب متن عمياء . والشائب وهو في العيب والعياء اتفاخرني وانت في الحضيض وتناظرني وانت الثقيل البغيض . تجعل المحاسن مساويا . وتمشي على المكر طاويا . تمتن علي . وتزعم انك اسديت الي ان كان الامر كذلك . فما انت الا كما قيل هنالك .

لاتمدحن ابن عباد وان هطلت * كفاه بالجود حتى اخجل الديما

فانها خطرات من وساوسه * يعطي ويمنع لابخلا ولا كرما

ولو سلم فقد اضعته بالامتنان . والاساءة والبهتان . الم تسمع ايها المنان . ماقيل في ذاك الزمان

اذا زرعت جميلا فاسقه غدقا * ماء المكارم كي ينمو لك الثمر

ولا تشنه بمن فالذي ذكروا * من عادة المن ان يؤذى به الشجر

وقول الاخر

اذا الجود لم يرزق خلاصا من الاذى * فلا الحمد مكسوبا ولا المال باقيا

وفي النفس اخلاق تدل على التقى * أكان سخاء ما اتى ام تساخيا

اما حرارتي فهي من حرارة الشمس . لانها تكون اذاً في البروج الشمالية وتقرب من الرأس كما قال الشاعر . حاوي المفاخر

ان العلى حدثتني وهي صادقة * فيما تحدث ان العز في النقل

لوان في شرف المأوى بلوغ منى * لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

افتعيبها بذلك وهي تدبير الحكيم المالك . ما انت الا هالك

وفي تعب من يحسد الشمس نورها * ويجهد ان يأتي لها بضريب

اما تعرف بها الاوقات . و يشتد النبات . و يستدل على طريق الصواب ويعلم عدد السنين والحساب . قد جعلها الله رحمة للعباد . ومصلحة تدرأ الفساد . قال ارسطو الحكيم . في الزمن القديم . لو توارت الشمس عن الارض لمات حيها . وانتن طينها . وجمد ماؤها . لانها في الارض كالكبد وكالدم في الجسد . وقد تغزلت فيها الشعراء . بما هو ازهى من الزهرة الزهراء . فمن ذلك قول بعضهم

وسائرة لاينقضي الدهر سيرها * وليست على حي من الناس تنزل

لها صاحب لم تلقه الدهر مرة * على اثرها يمشي يسير ويعمل

وما هي الا كما قيل . الشمس بين الكواكب . كالملك بين المواكب والباقي كالاعوان والجنود . وحمال الرايات والبنود . فهي جمال ايامي . ومدة مقامي . حتي يأتي زمانك المشوم . فتبعد في جهة الجنوب المعلوم . وتختفي بالغيوم . التي تأتي بالغموم كما قال الشاعر

جاء الشتا واجتال غيم اغبر * وتطلعت شمس عليها مغفر

وقال ابن المعتز

تظل الشمس ترمقنا بطرف * خفي لحظه من خلف ستر

تحاول فتق غيم وهو يأبى * كعنين يحاول فتق بكر

ولذلك قالوا في المثل : شمس الشتا للشيخ الذي طعن في السن وبلغ ساحل الحياة كما اتى ما هو الا شمس العصر على القصر واما خروج العرق من الجسد . فذاك من لطف الله الأحد . ومن تمام الصحة واذا قوبل بالمروحة . كان لذة وراحة . وعرقه تابع لثوبه فان كان مطيباً فانه يتحدر ويترشح كالمسك الازفر قال الشاعر : «الطيبون ثياباً كما عرقوا» . قال انس ابن مالك رضي الله عنه : دخل علينا النبي صلى الله عليه وسلم فنام عندنا فعرق وجاءت امي بقارورة فجعلت تسلت العرق فيها فاستيقظ صلى الله عليه وسلم فقال يا ام سليم ما هذا الذي تفعلين قالت عرقك نجعله في طيبنا وهو من اطيب الطيب وما احقه بقول القائل

تنشق مسك اصداغي حلالا * فهذا الطيب من عرق الجبين

وتراه يتقاطر كاللؤلؤ اذا انتثر . او الطل على اوراق الشجر . او دمع المحب عند الفراق والسهر . كما قال ابو بكر هذا

عرق الحبيب اذا تحدر * كالطل في ورق تقطر

او لؤلؤ يزهو وينتثر * او دمع مهجور تقطر

وما الطف قول بعضهم

قبلت وجنته فالفت جيده * خجلا ومال بعطفه المياس

فانهل من خديه فوق عذاره * عرق يحاكي الطل فوق الآس

فكانني استقطرت ورد خدوده * بتصاعد الزفرات من انفاسي

وقال الاخر

سقى الله روضاً قد تبدى لناظري * به شادن كالغصن يلهو ويمرح

وقد نضحت خداه من ماء ورده * وكل اناء بالذي فيه ينضح

وقال الاخر متضمناً

وطل على ورد حكى خد غادة * به عرق من خجلة يتصبب

واوراق كرم قد حكت كف سائل * لمن بات في نعمائه يتقلب

وقال آخر

بدا عرق في خده فسألته * بماذا تندى قال لي وهو يمزح

الا ان ماء الورد خدي اناؤه * وكل اناء بالذي فيه ينضح

وما اظرف قول الآخر

في خده عرق بدا * ذا حمرة لصفائه

هذا يصدق قولهم * الماء لون انائه

ولله در القائل

وكلل الطل اوراق الغصون ضحى * كما تكلل خد الخود بالعرق

واطلق الطير فيها سجع منطقه * ما بين مختلف منها ومتفق

واما الماء فانه لوجود الباعث هني . ولا يطيب ولا يلذ الا في زمني يبرد بالليل والسموم . فيشفي الغليل والهموم . واما في زمانك فلا يساغ وليس له باعث ولا مساغ . يجمد و يتحجر . وربما قتل واضجر . وقد شاع واشتهر . والعذب يهجر للافراط في الخصر . قال معاوية رضي الله عنه ما شيء الذ عندي من شربة باردة في يوم صائف ونظري الى بني وبني بني يدرجون حولي . واما ما ذكرت من السموم . فدواؤه معلوم . وبه يصير عين النعيم . واطيب من النسيم . اذا انزوى صاحبي الى جانب بيته او روضه . وسكب الماء حوله على ارضه . طاب هواؤه . وبرد ماؤه اما فضله ونتيجته وفائدته وثمرته فأمر عظيم . ونعيم مقيم . النخل الباسقات الحسان . التي وصفها خالد بن صفوان . بقوله : هي الراسخات في الوحل . المطعمات في المحل . الملقحات بالفحل . المونعات كشهد النحل . تخرج اسقاطا . غلاظاً واوساطا . ثم تنشق عن قضبان اللجين وعسجد . كالدر المنضد . ثم تصير ذهباً احمر بعد ان كانت في لون الزبرجد

كان النخل الباسقات وقد بدت * لناظرها حسناً قباب زبرجد
وقد علقت في فرعها زينة لها * قناديل ياقوت بامراس عسجد

وقال الاخر

روض كمخضر العذار وجدول * نقشت عليه يد الشمال مباردا
والنخل كالهيف الحسان تزينت * فلبسن من اثمارهن قلائدا

اما سمعت ما حكي من ان ملك الروم كتب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ايام خلافته بلغني ان ببلدك شجرة تخرج ثمراً كآذان الحمر ثم تنشق عن احسن من اللؤلؤ المنضد . ثم تخضر كالزبرجد الاخضر ثم تحمر وتصفر فتكون كشذور الذهب وقطع الياقوت ثم تينع كاطيب الفالوذج ثم تيبس فتكون قوتا فان كان كذلك فلا شك انها من شجر الجنة . فكتب اليه صدقت رسلك وانها الشجرة التي وُلد تحتها المسيح عليه السلام

ولله در من قال في وصف جماره

جسم لطيف المسّ لكنه * قد لف في ثوب من الصوف

وقال الآخر واجاد

اهدى لنا جمارة * من لست اخلو من عذابه
فكانما هي جسمه * لما تجرد من ثيابه

وقال الاخر في وصف طلعه

كصدر فتاة ناهد شق قلبها * سماع فشقت عنه ثوباً ممسكا

وقال ابن المعتز

افدي الذي اهدى لنا طلعة * اهدت الى قلبي المشوق بلابلا
فكانما هي زورق من فضة * قد اودعوه من اللجين سلاسلا

وقال الاخر في بلحة

اما ترى النخل اطلعت بلحا * جاء بشيراً بدولة الرطب

مكاحل من زمرد خرطت * مقمعات الروس بالذهب

وقال الاخر في بسرة

انظر الى البسر الذي تبدّى * ولونه قد حكى الشقيقا
كانما خوصه عليه * زبرجد مثمر عقيقا

وقال الاخر فيه

اما ترى النخل حاملات * بسرا حكى حمرة الشقيق
كانه من عقود تبر * منظم السبك بالعقيق

وقال الآخر فيه

اما ترى البسر الذي * قد جاءنا بالعجب
كيف غدا ولونه * كعاشق ملتهب

وقال الآخر في رطبة

اما ترى الرُطَبَ المجنى لآكله * حلوى أُعدت لنا من صنعة الباري
ما باشرتها يد العقاد في عمل * في الدست يوماً ولا حطت على النار

وقال الآخر في وصف رطبة وتمرة

اهليلج من لجين * مسمر بالنضار
يشف مثل كؤس * مملوءة من عقار

وقال آخر

اهدى لنا رطباً خلٌ اخو ثقة * يا حبذا هو من رزق لنا رزقا
يذوب من قبل مضغ الآكلين له * انسى به اذ اتانا اللوزنج العبقا
كانه الند لوناً والعبيق ذكا * والشهد طعماً بماء الورد قد فتقا

فظهر بحمد الله العلام . اني محض خير وانعام . بي نضجت الثمار وصلح الرطب واستحكم الحب وادرك الحصاد . واخصبت الارض وكثر الريف وازداد . ودرت اخلاف النعم . وسمنت البهائم . واشتدت قوى

الابدان . وبطر الانسان . وصارت الدنيا كانها عروس منعمة رعناء . ذات جمال وبهاء . واما انت ايها الشتاء اذا جئت جاءت غمة غماء . ترعب القلوب وترعد الاعضاء . بصوت كزئير الاسد . وتأتي برياح مزعجة تنسف التراب في وجه كل احد

وريح يضل الروح عن مستقره * وتستلب الركبان فوق الركائب

وقال ابن المعتز

بلينا وقد طاب الشراب واوقدت * حمياه في الفتيان نار تشاط
بابرد من كانون في يوم شمال * واكثر قسوا من رياح شباط

واني قد خصصت بنسيم الصبا . نسيم الروح والصبابة والصبا . مذكر ايام الشباب . وحامل رسائل الاحباب . ينفس عن المكروب . ويداوي القلوب . وهو لطيف صافي . وظريف شافي . يذكي الاذهان . وينفع الابدان . ويبسط الاخلاق وينشط الكسلان ولا سيما ان مر بمروج الازهار . فانه يحمل قواها الى الدماغ والجنان كما اشار الى ذلك الشاعر

وصبا اتت من قاسيون فسكنت * بهبوبها وصب الفؤاد البالي
خاضت مياه النيرين عشية * واتتك وهي بليلة الاذيال

وقال الآخر

لا تبعثوا غير الصبا بتحية * ما طاب في سمعي حديث سواها
حفظت احاديث الهوى وتضوعت * نشرا فيالله ما اذكاها

وقال الآخر

يداوي اسى العشاق من طيب ارضكم * نسيم صبا اضحى عليه قبول
بروحي من ذاك النسيم اذا سرى * طبيب يداوي الناس وهو عليل

وقال الآخر

سرت من بعيد الدار لي نسمة الصبا * وقد اصبحت حسرى من السير ضالعه

ومن عرق مبلولة الجيب بالندى * ومن تعب انفاسها متتابعه

وقال الآخر

ايا جبلي نعمان بالله خليا * نسيم الصبا يخلص الي نسيمها
اجد بردها او تشف مني حرارةً * على كبد لم يبق الا صميمها
فان الصبا ريح اذا ما تنسمت * على نفس مهموم تجلت همومها

والشمال وان كانت تهب في زمانك بقوة. فهي في اكثر اوقاتي تأتي بلطف وحنوه. كما قال الشاعر

وكلما هبت شمالية * اسألها عنك واستخبر
اعرف منهاطيب انفاسها * اشارةً عندي هي العنبر

وكان الصاحب بن عباد يترنم بقول ابي نواس

هبت لنا ريحٌ شمالية * متّتْ الى القلب باسباب
ادّت رسالات الهوى بيننا * عرفتها من بين اصحابي

وقال الاخر

وهبت لاصحابي شمال لطيفة * قريبة عهد بالحبيب بليل
ترانا اذا انفاسنا مزجت بها * ترنح في اكوازنا وتميل

وما الطف قول الاخر

جاد النسيم على الربا * بندى يديه وقال لي
انا ما اقصر عن ندى * وكما علمت شمائلي

وما ارق قول الاخر

الا يا نسيم الريح مالك كلما * تدانيت منا زاد نشرك طيبا
اظن سليمى خبرت بسقامنا * فاعطتك رياها فجئت طبيبا

يا هذا تضر العيون والاسماع. وتحدث الزكام والصداع. ويأتي معك مطر مداوم. كانه خصم ملازم. برعود تزعج القلوب. وغيوم

تزيد في الكروب . وسحاب مركوم . يضاعف الغموم . وبروق تجهر العيون . ويخفق منها قلب المحزون . فيعوق المواعيد بين المحبين . ويؤذي المسافرين . ويخرب العمران . ويهدم البنيان . فكم من قتيل تحت هدمه وساهر تحت وكفه . وغريق في لجته . وصريع في هوته . قال اعرابي اصابنا مسافر . يؤذي المسافر . ولا يرضي الحاضر . وقال الشاعر

صيرت منزلي خرابا ومن عا * داتها ان تخرّب المعمورا

وقال ابن المعتز

زورنا فما نزداد يارب من حيا * وانت على ما في النفوس شهيد
سقوف لبيتي صرن ارضاً ادوسها * وحيطان داري ركع وسجود

ويقال المطر مفسد الميعاد ويقال عاقت الامطار . عن الاوطار . وحالت الاوحال . عن الوصال . قال الشاعر

لاترج شيئاً خالصاً نفعه * فالغيث لايخلو من العيث

وقال اخر

ابرد من برد الكوانين * زيارة الراجل في الطين
لايصلح التسليم يوم الندى * الا لاصحاب البراذين

وينزل معه البرد والثلج . ويكون على الناس اشد من الثج . يخرج من الزمهرير . ويجعل الماء كالقوارير . وهذه ارض مصر يضرها ويؤذي زروعها واذا جاء اليها ارتاعت قلوب اهلها وقد خصها الله بالنيل الذي يكون وفاؤه في زماني . فيأتي بالسرور والرخاء والاماني . اما سمعت ماقيل

لله يوم الوفا والناس قد جمعوا * كالروض تطفو على نهر ازاهره
وللوفاء عمود من اصابعه * مخلق تملأ الدنيا بشائره

وقول الاخر

لعمرك ما مصر بمصر وانما * هي الجنة العليا لمن يتفكر

وابناؤها الولدان والحور عينها * وروضتها الفردوس والنيل كوثر

وما الطف قول الشاعر

فلو ان السحاب همي بعقل * لما اروى مع النخل القتادا

ولو اعطى على قدر المعالي * سقى الهضبات واجتنب الوهادا

وتوقد فيك النيران . فيطير شررها في المكان . ويحرق الثياب ويجعلها سودا . كفى بذلك شؤما معدودا . كان الناس حولها . مجوس يعبدونها . يعرضون عليها في جميع اوقاتهم . وهي لباسهم وهي فاكهتهم قال الشاعر

النار فاكهة الشتاء فمن يرد * اكل الفواكه شاتيا فليصطل

وقال الاخر

رأيت بلاد الروم لاعيش عندهم * يطيب ولا صفو يعادل اكدراى

وكيف يطيب العيش لي بين فتية * نهارا وليلا يعرضون على النار

وقال الاخر

وصوبة في مجلس * كانها جهنم . وحولها زعانف * كلهم مهم

والمغتسل في زمانك . يشرف على الحمام . فيكثر في ايامك دخول الحمام . الذي قال فيه الامام علي كرم الله وجهه بئس البيت الحمام تكشف فيه العورات . وترتفع فيه الاصوات . ولا يقرأ فيه آية من كتاب الله تعالى . وقد ذمه الرقاشي بقوله يهتك الاستار . ويولف الاقذار . ويذهب بالوقار . وفي الخبر . ان الحمام من بيوت الشياطين . قال الشاعر يحث على سرعة الخروج منه . والبعد عنه

خذ من الحمام واخرج * قبل ان يأخذ منكا . حدثا عنه والا * حدث الحمام عنكا

وقال اخر

وحمام رأيت بها غزالا * كبدر التم في غصن قويم

فقلت تعجبوا من صنع ربي * رايت الحور في وسط الجحيم

وقال اخر

وحمام دخلناها لامر * حكت سقرا وفيها المجرمونا
ينادي داخلوها اخرجونا * فان عدنا فانا ظالمونا

وقال اخر

ان حمامنا الذي نحن فيه * قد اناخ العذاب فيه وخيّمْ
مظلم الارض والسما والنوا * حي كل عيب من عيبه يتعلم
وله مالك غدا خازن النا * ر بل مالك ارق وارحم
كلما قلت قد اطلت عذابي * قال لي اخسا فيها ولا تتكلم
قلت لما رايته يتلظى * ربنا اصرف عنا عذاب جهنم

وقال اخر

جئت اريد الحمام يوماً * فقزني النعش والحصير
حتى اذا جئت نلت ريحاً * كانما تنبش القبور
والناس عند الصدور فيها * قد يبست منهم الصدور
تعرف هذا من حسن هذا * وقد علا منهم الهدير
انقل خوف الوقوع رجلي * فيها كما ينقل الضرير
جهنم لا يصاب فيها * وهج بل الكل زمهرير
قد عرفت فالحديث عنها * بنحس اوصافها يسير
وكلما جاءها زبون * قلنا أَلم يأتكم نذير

وقال اخر

حمامنا من ضيقها تشتكي * كانها صدر وقد اخرجوه
فهي لظى نزاعة للشوى * وماؤها كالمهل يشوي الوجوه

فلما سمع ذلك التشاء . قال يافتى ما احراك في التمثال . بقول من قال

لي صاحب افديه من صاحب * حلو التهاني حسن الاحتيال
لوشاء من رقة الفاظه * الف ما بين الهدى والضلال
يكفيك منه انه ربما * قاد الى المهجور طيف الخيال

ماهذه السفسطة والمشاغبة والمغالطه اما ما ذكرت من تجمد الماء وتحجره من بردي فذلك من الخطأ الذي يزري بقائله ويردي فقد قال الجاحظ . الماء ليس يجمد للبرد فقط . فقد تكون الليلة باردة جداً ولا يجمد الماء . ويجمد في الليلة التي هي اقل بردا منها . وقد يختلف جمود الماء في الليلة الساكنة وذات الريح . قال وقد اخبرني من لا ارتاب في خبره . انهم كانوا في جبل يستغنون فيه بلبس المبطنات . ومتى صبوا ماء في اناء من زجاج جمد من ساعته . فليس جمود الماء من البرد فقط . ولا بد من شركة . ومقادير واختلاف جوهر . ومقابلات كسرعة البرد في بعض الازمان . وابطائه عن بعض وكاختلاف عمل البرد في الماء المغلي والمتروك على حاله ولقد رايت انا بالبادية الماء قد بلغ به البرد الى حد ما كنت اطيق ان اباشره وهو مع ذلك على حالة لم يعمل فيه الجمود وربما جمد ماء جيحون حتى بلغ غلظ الجمد فيه ذراعاً فصاعدا وشربه لذيذ لا يقدر الشارب ان يعبه عبا كذا افاده الزمخشري واما الماء البارد في زمانك فهو منسوب الي ومدحه عائد علي وقد ذكر الوداعي في تذكرته قال حدثني جماعة من اهل عانه وهي من العراق انه اذا كان اوان الاربعينيات في الكوانين طرحوا في الماء كيزانهم وشرباتهم مدة الاربعينيات فاذا انقضت رفعوها الى زمان الصيف وشربوا فيها الماء فانها تبرد بردا كثيرا يقوم مقام الثلج كما نقله بعضهم قال وذكر لي الوزير العالم الفاضل فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس ان ماء طوبه اذا شيل الى الصيف وسكب في آنية الماء برد الى الغاية وان ماء هذا الفصل لا يفسد اذا شيل بخلاف غيره من الفصول فانظر هذا الاستعداد لاجل حرك

الذي يزيد الاكباد اما الرياح التي في زمني فانها كما قيل

رياح تبشر الارض بالقط * ر كذيل الغلالة المبلول

ووجوه البقاع تنظر الغيـ * ـث انتظار المحب رد الرسول

وما هو من هذا القبيل

والريح تجذب اطراف الرداء كما * افضى الشقيق الى تنبيه وسنان

وليست كما قيل

الريح اقود ماتكون لانها * تبدي خفايا الردف والاعكان

وتميل بالاغصان عند هبوبها * حتى تقبل اوجه الغدران

فلذلك العشاق يتخذونها * رسلا الى الاحباب والاوطان

وقيل الرياح اربعة ريح تقسم السحاب وريح تثيره فتجعله كسفا وريح تؤلف بينه فتجعله ركاما والشمال تفرقها قال مطرف لو حبست الريح عن الناس لانتن مابين السماء والارض وعن ابي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . الريح من روح الله . ولم يصف احد الريح الا القائل الفصيح

كأن شكل الهلال قُرط * او عطفة النون او قلامه

كأن لون الهواء مـاء * او سندس رق او غمامه

وكانك لم تسمع قول القائل . ايها الصيف القاتل

ويوم قيظ اذاب جسمي * والماء لم يشف لي غليلا

قد صح موت النسيم فيه * وكان عهدي به عليلا

وياعديم الحيا . تذم المطر والحيا . الذي هو قوام العالم . وحياة بني آدم الذي مدحه الله في كتابه المبين . وجعله رحمة ورزقا للعالمين . ومدحه الادباء حديثا وقديما . نثرا ونظما . قال بعضهم مرحبا بالغيث الذي اغاث الانام . وروى الهضاب والآكام . واحيي النبات والسوام

وقال آخر يافرحنا بالغيث الذي احيى الورى · و نبه عيون النور من الكرى
وقال ابن عباس رضي الله عنه · المطر بعل الارض · يعني انه يلقحها ومنه اخذ ابن المعتز قوله ·

ومزنة مشعلة البارق * تبكي على الارض بكا العاشق
تلقح بالقطر بطون الثرى * والقطر بعل التربة التائق

وقال بعضهم

اتى هذا النثار على نظام * وجاء الخير اذ جاد الغمام
فللوسمي في ارضي بكاء * وللزرع ابتهاج وابتسام

وقال آخر

قفا فاعجبا من هامل الغيث انه * لأعجب شيء يعجب العين والفكرا
يمد على الافاق بيض خيوطه * فينسج منه للثرى حلة خضرا

وقال الاخر

كأن السحاب الغر لما تجمعت * وقد فرقت عنا الهموم بجمعها
نياق ووجه الارض قعب وثلجها * حليب وكف الريح حالب ضرعها

وقال الاخر

يهنيك ان القطر حين بدا * نشر السرور به من الرمس
نطقت بنات اللهو فيه معاً * من بعد بُعد الصوت والهمس

يا هذا اتذم السحاب والغيم · والرعد والبرق · وقد ابدى الشعراء فيهما كل معنى راق ورق · فمن ذلك قول بعضهم

سحاب اتى كالاً من بعد تخوف * له في الثرى فعل الشفاء بمدنف
اكب على الافاق إكباب مطرق * بفكر او كالنادم المتلهف
ومد جناحيه الى الارض جانحا * وراح عليها كالغراب المرفرف

وقول الاخر

اما ترى الرعد بكى واشتكى * والبرق قد اومض و ستضحكا

فاشرب على غيم كصبغ الدجى * اضحك وجه الارض لما بكى

وقول الاخر

يوم له فضل على الايام * مزج السحاب ضياءه بظلام

فالبرق يخفق مثل قلب هائم * والغيم يبكي مثل طرف هامي

وكأن وجه الارض خد متيم * وصلت دموع سحابه بسجام

فاطلب ليومك اربعاً هن المنى * وبهن تصفو لذة الأيام

وجه الحبيب ومنظراً مستشرفاً * ومغنياً غرداً وكأس مدام

وقول اخر

كأنما الرعد بها ثاكلة * نادبة تخلط نوحاً بشجي

فاقدة واحدها تذكرت * ماقدمضى من عيشهاومن مضى

والبرق في حافاتها يفعل ما * يفعله وجد الحزين في الحشا

وقال الاخر

بالله يابرق ان اومضت في سحر * وحارس اللحظ في شك من الخبر

قف بالثنيات واذكرني اذا عذبت * منيهلات عذيب الثغر في السحر

وتذم ايها العلج البرد والثلج . الم تنظر الى حسنهما ولطفهما الم تسمع ماقيل في وصفهما فمن ذلك قول بعضهم

نثرت على الحصباء كالحصباء بل * القت على الرضراض كالرضراض

وقول الاخر

نثر الجو على الترب برد * أي در لنحور لو جمد

وقول الاخر

جاءت تهادى في برود من حبر * تنثر درا كان لو ذاب مطر

تطير في الجو كنوار الزهر * او شرر لو كان للماء شرر

وقول بعضهم

نظر الى وسط البسيطة ابيضا * لم تبد فيه شامة سوداء
كرم السحاب فعم بالثلج الثرى * ان الكريم له اليد البيضاء

وقول الاخر

اقبل الثلج فانبسط للسرور * ولشرب الكبير بعد الصغير
اقبل الجو في غلائل نور * وتهادى بلؤلؤ منثور
فكأن السماء صاهرت الار * ض فكان النثار من كافور

وقول الآخر

ذهب كؤسك يا غلا * م فانه يوم مفضض

وقول الاخر

اما ترى البرد قد وافت عساكره * وعسكر الحر كيف انصاع منطلقا
والارض تحت ضريب الثلج تحسبها * قد البست حبكا او غشيت ورقا
فانهض بنار الى فحم كانهما * في العين ظلم وانصاف قد اتفقا
جاءت ونحن كقلب الصب حين سلا * بردا فصرنا كقلب الصب اذ عشقا

وقول الآخر

راحت به الارض الفضاء كانها * من كل ناحية بثغرك تضحك

وقول الاخر

نثر السحاب على الغصون دريرة * اهدت لنا نوّرا يروق ونورا
شابت ذوائبها فعدن كأنها * اجفان عين تحمل الكافورا

وما احسن قول الآخر

طربت الى الصبوح مع الصباح * وشرب الراح والغرر الملاح
كان الثلج كالكافور نثرا * ونار عند نارنج وراح
فمشموم ومشروب ونار * وصبح والصبوح مع الصباح
لهيب في لهيب في لهيب * صباح في صباح في صباح

وكان الصاحب بن عباد اذا شرب ماء بثلج انشد على اثره

قعقعة الثلج بماء عذب * تستخرج الحمد باقصى القلب

ثم يقول اللهم جدد اللعن على يزيد وقالت رابعة القيسية ما سمعت الاذان الا ذكرت منادي يوم القيامة وما رايت الثلج الا ذكرت تطاير الصحف وما رايت الجراد الا ذكرت الحشر وهكذا اهل الاعتبار والفكر لهم في كل شيء نظر واما ما ذكر من امر مطر مصر فهو مثل يضرب للشيء النافع يتضرر به في كل عصر فهو من عيوب مصر الم تسمع هذا الشعر

يقولون مصر اخصب الارض كلها * فقلت لهم بغداد اخصب من مصر
وما مصر الا بلدة مثل غيرها * تعاقبها الايام بالعسر واليسر
ولكنكم تطرونها بهواكم * ولم تخل ارض من خصب ومن مطر
والا فاين الخصب من معشر بها * يقاسون انواع العذاب من الفقر
وما خير قوم تجدب الارض عندهم * بما فيه خصب العالمين من القطر
اذا بشروا بالغيث ريعت قلوبهم * كما ريع في الظلماء سرب القطا الكدر

واين القطر الذي هو كثير الدرر من كثافة النيل الذي يقطع السبيل ويطم البلاد ويتلف العباد ويهدم البناء اما سمعت ما جاء فيه من الهجا فمن ذلك قول المستغيث لما طغى

يارب ان النيل زاد زيادة * دعت الى هدم وفرط شتت
ماضره لو جا على عاداته * في دفعه او كان بدفع بالتي

وقول الاخر

قالوا علا نيل مصر في زيادته * حتى لقد بلغ الاهرام حين طما
فقلت هذا عجيب في بلادكم * ان ابن ستة عشر يبلغ الهرما

واما استشهادك بقول فلوان السحاب همى بعقل الخ فهو من قبيل قول ابن الراوندي

كم عاقل عاقل اعيت مذاهبه * وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الاوهام حائرة * وصيّر العالم النحرير زنديقا

وهو احد زنادقة الاسلام الثلاثة والثاني ابو العلاء المعري والثالث ابو حيان التوحيدي . قال الحافظ الذهبي واشدهم على الاسلام التوحيدي لانهما صرحا وهو يجمجم وقد رد عليه كثير من العلماء قوله هذا فمن ذلك قول بعضهم

هذا الذي زاد اهل العلم معرفة * وزادهم بالاله الحق تصديقا
فليس بالجهل صار الرزق منبسطا * وليس بالعلم صار الرزق محوقا
وانما هي ارزاق مقدرة * بحكمة الله فاسأل منه توفيقا

وما احسن قول بعضهم وهو كالرد عليه ايضاً

عجبت من ربي وربي حكيم * ان يحرم العاقلَ فضل النعيم
ما ظلم الباري ولكنه * اراد ان يظهر عجز الحكيم

ولله در القائل

ينال الفتى من دهره وهو جاهل * ويكدي الفتى من دهره وهو عالم
ولو كانت الارزاق تأتي على الحجا * اذن هلكت من جهلهن البهائم

وفصل الخطاب في هذا المقام قول الملك العلام اللهُ الذي يرسلُ الرياح فتثير سحابًا فيبسطه في السماء كيف يشاء فترى الودق يخرج من خلاله وقوله تعالى وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى اذا اقلّت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فانزلنا به الماء فاخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرونَ والبلد الطيب يخرج نباته بأذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون . وحسبك ذما قولهم سحابة صيف وقرائع الصيف تأتي فتغر الناس ثم تخلف الوعد باليأس فكانها تقول لا مساس وتبخل لاجلك بملء الكاس . واما

النار فلا ينكر فضلها ولا يجحد . ولا يستغنى عنها دائمًا كل احد . ومنافعها يطول حصرها ويصعب ذكرها قال تعالى الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا . وهي احد العناصر الاربعة واعظم ما زجر عن المعصية واذا وصفوا شيئًا بالحسن قالوا ما هو الا نار موقدة قالت امراة انا احسن من النار الموقدة وقيل في الاخوان هم بمنزلة النار قليلها ينفع وكثيرها يضر

وفي الحديث : المصباح مطردة للشيطان مذبة للهوام مدفعة للصوص النابغة . ولا شك انها من محاسني وجمال زمني وقد جاء المثل بها مثبتا النار فاكهة الشتا وقر الشتا كيف لو رأيتها في مجلس في كانون يلقى فيه العود بغير قانون قد طار منها الشرار كانها درر وقت النثار او شهب وقت الانتصار اما سمعت ما جاء فيها من الاشعار فمن ذلك قول بعضهم

هات التي الآيك اصل ولادها * ولها جبين الشمس في الاشباس
بتقنع الياقوت سيف لباتها * بوساوس تنفي من الوسواس
انس الوحيد وصبح عين المجتلي * ولباس من امسى بغير لباس
حمراء ترفل بالسواد كأنما * ضربت بعرق في بني العباس

وقول الاخر

لابنة الزند في الكوانين جمر * كالدراري سيف الليلة الظلماء
خبروني عنها ولا تكذبوني * ألديها صنعة الكيمياء
سبكت فحمها سبائك تبر * وصعته بالفضة البيضاء
كلما ولول النسيم عليها * رقصت سيف غلالة حمراء
سفرت عن جبينها فأرتنا * حاجب الليل طالعا بالعشاء
لو ترانا من حولها قلت قوم * يتعاطون اكؤس الصهباء

وقول الاخر

كأنما الجمر والرماد وقد * كاد يواري من ناره النورا

وردٌ جنيُّ القطاف احمر قد * ذرَّت عليه الاكف كافورا

وقول الاخر

اما ترى النار كيف اسقمها السة * ر فاصبحت تخبو وطوراً تسعَّر

وغدا الجمر والرماد عليها * في قميصين مذهب ومعنبر

وقول الاخر

كانما النار والرماد معا * وضوءها في ظلامه يحجبْ

وجنةُ عذراء مسها خجل * فاستترت تحت عنبرٍ اشهبْ

وقول الاخر

كأنما النار في تلهبها * والفحم من فوقها يلغطيها

زنجية شبكت اصابعها * من فوق نارنجةٍ تغطيها

وقول الاخر

فحم ذكا في حشاه جمر * فقلت مسك وجلنارْ

وخد من قد هويت لما * اطل من فوقه العذارْ

وقول الاخر

وفحم كأيام الوصال فعاله * ومنظره في العين يوم صدود

كأن لهيب النار يوم خلاله * بوارق لاحت في غمائم سود

وقول الاخر في كانون

وذي اربع لا يطيق النهو * ض ولا بأ مـ السير فيمن سرى

تحمّله سبجا اسودا * فيقلبه ذهباً احمرا

ولا يهتم بها ولا يقدر على ايقادها الا القوم الكرام والسادة العظام من تجملت بهم المدن والقرى وبسطوا موائد القرى اذا ضل عنهم ضيفهم رفعوا له من النار في الظلماء الوية حمرا

قال الآخر

ضربوا بمدرجة الطريق خيامهم * يتقارعون على قرى الضيفان

ويكاد موقدهم يجود بنفسه * حب القرى حطبا على النيران

وقال الآخر

لنيرانه في الحي اي تحرق * على الضيف ان ابطا واي تلهب

وقال الاخر ايضاً

متى تأته تعشُ الى ضوء ناره * تجد خير نار عندها خير موقد

وقال الاخر

يرد اليك ما انشدته * ويهدم عليك ماشيدته

وقال الآخر

رأيت بلاد الروم عيشيَ عندهم * يطيب وصفوي لا يشاب باكدار

فقد ضل من قد قال فيهم بانهم * نهارا وليلا يعرضون على النار

وقال ابو بكر هذا ايضاً

وصوبة وقت الشتا في مجلس * تزهو على صوب الغمام وتفخر

عامود نور بالعقيق مجوف * من ارضه لسمائه اذ تنظر

من حوله اولي النهاء اكابر * خضع الزمان لمجدهم فتأمروا

وكان هذا الغافل والمسكين الجاهل لم يعرف قدر النار واقسامها وما ضرب من الامثال فيها مما اضيف اليها وهي نار الله نار ابراهيم نار موسى نار القربان نار الحرتين نار الشجر نار القرى نار الحرب نار الحلف نار المسافر نار المجوس نار الاصطلا نار الانذار نار الاستكثار نار الاستمطار نار التهويل نار الصيد نار الرحفتين نار الغضا نار الحلفا نار الحباحب نار البرق نار المعدة نار الحمى نار التسوق نار الشر نار الحياة نار الشباب نار الشراب نار الكي نار الذبالة قبسة العجلان فراش النار سرادق النار سعد النار نافع ضرمه . واما الحمام فهو لذة الحياة ونعيم الدنيا وشفاء البدن وجمال المحيا قال جالينوس ان الحمام نافع في الشتاء والصيف ولمن مزاجه حار او بارد

او رطب او يابس وليس هذا موضع الاستقصا في منافعه وما قيل فيه ولكن نذكر طرفاً من مدحه قال ابو هريرة يرفعه نعم البيت الحمام يدخله المسلم يسأل الله الجنة ويستعيذه من النار قال بعض السلف نعم البيت الحمام ينق الاقذار. ويذكر النار ومدحه الرقاشي نفسه بقوله يذهب القشافة ويعقب النظافة ويغشي التخمة ويطيب النغمة وقال بعضهم الحمام صيقل الاجسام ونظام النظافة ودافع آفة القشافة وكأنك يا هذا لم تر حمامات بغداد وما فيها من حسن البناء والاستعداد الم تسمع بحمام بوران وحمام دار الملك الاشرف الذي اتخذ شبابيكه واانابيبه من فضة وذهب وبعضها على هيئة الطيور المعجبة واذا خرج منها الماء صوّت باصوات طيبة الى غير ذلك مما يدهش اللب . اما سمعت بحمام دار جمال الملك وزير المسترشد بالله العباسي الذي فيه مستراح فيه انبوب ان فركه الانسان يميناً خرج ماء حار وان فركه شمالا خرج ماء بارد . اما بلغك حمام منجاب بالبصره الذي يقول فيه الشاعر

يارب قائلة يوماً وقد ولعت * كيف الطريق الى حمام منجاب

واما ما اوردته من الاشعار في ذم الحمام فذلك في نوع خاص لم يكن متقناً باحكام بان زادت حرارته او نقصت عن المرام او لم يكن فيه استعداد تام والحمام النافع هو المعتدل في حره وبرده الطيب الرائحة والعذب الماء والذي اضواؤه كثيرة مشرقة وفناؤه واسع وفيه تصاوير بديعة الصنعة بينة الحسن مثل عاشق ومعشوق او مثل رياض وبساتين وطرد خيل ووحوش فان في تصوير هذه تقوية القوى الفكرية وغيرها . قال الحكيم بدر الدين بن قاضي بعلبك في كتاب مفرح النفس : قد اجمع الحكماء والاطباء والالباء قاطبة على ان النظر الى الصورة الجميلة البديعة الجمال تفرح النفس وتنشطها وتزيل عنها الافكار والوساوس

السوداوية وتقوّي القلب قوة لا مزيد عليها بسبب ازالة الافكار الردية عنه . ثم قالوا فان تعذر حصول النظر الى الصور الجميلة فليكن النظر الى الصور الجميلة متقنة الصنعة مصورة في الكتب او في الهياكل او في القصور المشرفة وهذا المعنى قد ذكره الحكيم محمد بن زكريا الرازي وبالغ في ملازمته لمن لم يجد في نفسه افكارا ردية ووساوس فاسدة غير موافقة للنظام الطبيعي واطال . يا هذا اما سمعت قول الشاعر

بيت بنته حكماء الورى * فهو الى الحكمة منسوب
مجاور النار ولكنه * يجاور النار به الطيب
حرٌّ هو الروح لاجسامنا * والحرّ للاجسام تعذيب

وقول الاخر

اسعيد هل لك في زيارة منزل * تثني عليه جوارح الزوّار
بيت ترى الجدران فيه منابعاً * وترى السماء كثيرة الاقمار

وقول الاخر

قم بنا قبل غرة الاصباح * وقيام السقاة بالاقداح
نتمشى الى النعيم الذي فيه صلاح الاجسام والارواح
بيت ظرف تجول عيناك فيه * بين بيض الطلا وبيض القفاح
وتلاقي الجسوم في خلع منـ * ـه رقاق على الجسوم ملاح
فاذا ما صقلت جسمك فيه * باكف النعيم صقل الصفاح
نتروى من الصبوح وتقتـ * ـض نسيم الرياح قبل الصباح

وقال الآخر

وبيت كأحشاء المحب دخلته * وما لي ثياب فيه غير اهابي
أرى محرما فيه وليس بكعبة * فما ساغ الا فيه خلع ثيابي
يشابه قلب الصب في حر قلبه * اذا اذنت احبابه بذهاب

توهمت فيه قطعة من جهنم * ولكنها من غير مس عقاب
يثير ضبابًا بالبخار مخللا * بدور زجاج في شموس قباب

وقال الاخر

لم انس ما عشت حمامًا حللت به * ما بين كل رخيم الدل فتان
في جنة من طباع اربع جمعت * ارض وماء واهواء ونيران
فنلت من حرّها بردًا على كبدي * وفزت من مالك فيها برضوان
فاعجب لها جنـة فيها جحيم لظى * تذكي ولم تخل من حور وولدان

ونقل عن ابن بسام قال دخل الاديبان ابو جعفر بن هريرة التليطلي المعروف بالاعمي وابو بكر بن بقي الحمام فتعاطيا العمل فيه قال الاعمي

يا حسن حمامنا وبهجته * مرىء من السحر كله حسن
ماء ونار حماها كنف * كالقلب فيه السرور والحزن

ثم اعجبه المعنى فقال

ليس على لهونـا مزيد * ولا لحمامنـا ضريب
ماء وفيـه لهيب نار * كالشمس في ديمة تصوب
وابيض تحته رخام * كالثلج حين ابتدا يذوب

وقال ابن بقي

حمامنـا فيه فصل القيظ يحتدم * وفيـه للبرد حر غير ذي ضرر
ضدان ينعم جسم المرء بينهما * كالغصن ينعم بين الشمس والمطر

وقال الاعمي وقد نظر فيه الى فتى صبيح

هل استمالك جسم ابن الامين وقد * سالت عليه من الحمام انداء
كالغصن باشر حر النار من كثب * فظل يقطر من اعطافه الماء

وقال الاخر

ان حمامنا الذي نحن فيه * اسيء ماء به واية نار

قد نزلنا به على ابن معين * ورويـنا عنه صحيح البخاري

وقال الاخر

ولم ادخل الحمام من اجل لذة * فكيف ونار الشوق بين جوانحي

ولكنني لم يكفني فيض مقلتي * دخلت لابكي من جميع جوارحي

وقال اخر

ولم ادخل الحمام ساعة بينهم * لاجل نعيم قد رضيت بيومي

ولكن لتجري عبرتي مطمئنة * فابكي ولا يدري بذاك جليسي

وقال اخر

وما اشبه الحمام بالموت لامرء * يذكر لكن اين من يتذكر

يجرد عن اهل ومال وملبس * ويصحبه من كل ذلك مئزر

والغز فيه بعضهم بقوله

ومنزل اقوام اذا ما تقابلوا * تشابه فيه وغده ورئيسه

ينفس كربي اذ ينفس كربه * ويعظم انسي اذ يقل انيسه

اذاما اعرت الجوطرفاً تكاثرت * على من به اقماره وشموسه

فلما تم كلام البرد قال له الحر أُفٍّ لك من خصم الد وثقيل تجاوز الحد وفاسق وجب عليه الحد تقابل بالهزل الجد وانت في الغي مجد . واما ما نسبته الي من ذم المطر فهو مغالطة وكذب يؤثر انما عنيت كثرته وتواليه المضر كيف وقد ورد في الخبر : اللهم حوالينا ولا علينا وقال الشاعر

اقلل زيارة من تهوى زيارته * فالناس من لم يواصلهم اجلوه

كالغيث فيه غياث الناس كلهم * ولو يزيد على يومين ملوه

واما النار والحمام فلا شك ان صحبتها شؤم وحمام . واما قولهم سحابة الصيف فهو مثل يضرب لما يقل لبثه ويخف مكثه وشبه بها غضب العاشق . وقال احد الحكماء الذين وقفوا على تابوت الاسكندر ورمى كل

منهم بحكمة بالغة : انظر الى حلم النائم كيف انقضى والى سحاب الصيف كيف انجلى · وكان ابن شبرمة اذا نزلت به نازلة ينشد سحابة صيف عن قريب تقشع · ومن فصل للصاحب سحائب الصيف اثبت من قولك واخط سيف الماء اقوى من عهدك · وفي كتاب المنهج اقبال الدنيا كالمامة ضيف او سحابة صيف او زيارة ضيف · اما سمعت قول الاصفهاني منوهاً بشأ في طبع الكريم لا يحتمل حمة الضيم وهواء الصيف لا يقبل غمة الغيم · ياهذا ليلك طويل وعلى القلوب ثقيل يمل منه الصحيح ويضجر منه العليل ضاعف الوجد على المهجورين وقطع الطريق على المحبين طالما خاطبوه وهو لا يجيب ولا يرثي للنحيب قاطن لا يظعن اوعاجز قد ازمن او هائم ضل الطريق او سكران لا يفيق او اسير مكبل في الحديد اودهر لا يبلى منه الجديد او اعمى يئس من رؤية الصباح او طائر مقصوص الجناح قال الشاعر

ايها النائمون حولي اعينو * ني على الليل خشية وادكارا
حدثوني عن النهار حديثاً * او صفوه فقد نسيت النهارا

وقال الاخر

وليل كواكبه لا تسير * ولا هو منه يطيق البراحا
كيوم القيامة في طوله * على من يراقب فيه الصباحا

وقال الاخر

اقول والليل في امتداد * وادمع الغيث في انسفاح
اظن ليلي بغير شك * قد بات يبكي على الصباح

وقال ابن المعتز

اقول وقد طال ليل الهموم * وسامرت نجوى فؤاد سقيم
ترى الشمس قد مسخت كوكباً * وقد طلعت في عداد النجوم

وقول الاخر

ولرب ليل تاه فيه نجمه * قطعته سحراً فطال وعسا

وسألته عن صبحه فاجابني * لوكان في قيد الحياة تنفسا

وقال اخر

كأن الثريا راحة تشبه الدجى * ليعلم طال الليل ام قد تعرضا
فليل تراه بين شرق ومغرب * يقاس بشبر كيف يرجى له انقضا

وقال اخر

لما رأيت النجم ساه طرفه * والجو قد القى عليه سباتا
وبنات نعش في الحداد سوافرا * ايقنت ان صباحهم قد ماتا

وقال الاخر

ان طال ليلي بعدهم فلطوله * عذر وذاك لما اقاسي منهم
لم تسر فيه نجومه لكنها * وقفت لتسمع ما احدث عنهم

وقال اخر

وليلة ارقني طولها * فبتها في حيرة الذاهل
كأنما اشتقت لافراطها * في طولها من امل الجاهل

وقال الاخر

رب ليل كانه الدهر طولا * قد تناهى فليس فيه مزيد
ذي نجوم كانها انجم الشيب * ليست تغور لا بل تزيد

ومع طوله المحل تخرج البراغيث كانها ليوث فتفسد وتعوث فكم من مغيث ولا مغيث قال الشاعر

رقصت براغيث الشتا فاجابها الـ * ناموس حالاً بالغناء المعلم
وتواجد البق الكثيف بطبعه * طرباً على شرب المدامة من دمي

وقال اخر

لا بارك الله في البعوض ولا * بورك في البق والبراغيث

تناهبونا كأنهم عرب * او امناء الحكم في المواريث

فلما سمع ذلك الشتاء قال الى متى الى متى تموه الزيف وترتكب حد السيف تقبح الحسن بكلام مستهجن

حسدوا الفتى اذ لم ينالوا سعيه * والقوم اعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها * حسداً وبغضا انه لذميم

اما طول ليلي فهو من فضلي كيف لا وقد جعله الله سكنا ولباسا وجعل فيه انساً وايناسا بالاليف والسكن والحبيب الاغن وهو وقت المنا والمنادمة وكم نديم فيه سفك المنى دمه الم تسمع ما قاله الاريب

انصب نهاراً في طلاب العلا * واصبر على بعد لقاء الحبيب
حتى اذا الليل بدا داجياً * واكتحلت بالغمض عين الرقيب
فبادر الليل بما تشتهي * فانما الليل نهار الاديب
كم فاسق تحسبه ناسكا * يستقبل الليل بامر عجيب
ارخى عليه الليل اثوابه * فبات في امن وعيش خصيب
ولذة الاحمق مكشوفة * يسعى بها كل عدو مريب

وهو وقت القيام والتهجد والمناجاة والتعبد فيه انس العباد وحياة الزهاد . قال الامام المبجل احمد بن حنبل : لولا الليل لما احببت البقاء في الدنيا . وقال الاخر

سهري لتنقيح العلوم الذ لي * من وصل غانية وطيب عناق

وهو يطول على صاحب الفكر والكئيب وعلى المهجور ومن فارق الحبيب ويقصر على المسرور النائم والمتهجد القائم . قال ابو بكر هذا

يا خليلي طال ليلي بالفكر * وزماني قد رماني بالعبر
ودواني بالاغاني في مطر * في رياض زاهيات بالزهر

وشفائي في شفاهٍ في لمى * مزجها شهد وخمر في السحر

وقال الاخر

ان الليالي للانام مناهـل * تطوى وتنشر بينها الاعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة * وطوالهن مع السرور قصار

وقال الاخر

لا اظلم الليـل ولا ادعي * ان نجوم الليـل ليست تغور
ليلي كما شاءت فان ما تزر * طال وان زادت فليلي قصير
تصرّف الليـل على حكمها * فهو على ما صرفته يدور

وقال الاخر

تطاول الليـل لا تسري كواكبه * ام ان حار حتى صار حيرانا
ما طال ليلي ولا حارت كواكبه * ليـل المحب طويـل كيفما كانا

وقال الاخر

ورب ليـل امد من نفس العا * شق طولا قطعتـه بانتحـاب
ونعيم الذّ من وصـل معشـوق * تبدلته بيوم عتاب

وقال الاخر

رقدتَ فلم ترث للساهر * وليـل المحب بلا آخر
ولم ادر بعد ذهاب الرقا * د ما فعل الدمع بالساهر

وقال الاخر

من قصر الليل اذا زرتني * اشكو وتشكين من الطول
عدوّ عينيك وشانيهما * اصبح مشغولا بمشغول

وقال الاخر

يا ليلة كان من تقاصرها * يعثر فيها العشاء في السحر
تطول في هجرنا وتقصر في الوصـل فما نلتقي على قدر

وقول الاخر

عهدي بنا ورداء الوصل يجمعنا * والليل اطوله كاللمح بالبصر
فالآن ليلي مذ غابوا فديتهم * ليل الضرير فصبحي غير منتظر

وقال الاخر

اخو الهوى يستطيل الليل في سهره * والليل في طوله جار على قدره
ليل الهوى سنة في الهجر مدته * لكنه سنة في الوصل من قصره

وقال الاخر

ليل المحبين مطويٌّ جوانبه * مشمر الذيل منسوب الى القصر
اذا الحبيبان باتا تحت جانبه * غابت وائله في اخر السحر
ما ذاك الا لأن الصبح نمَّ بنا * فاطلع الشمس من غيظ على القمر

وقال الاخر

تطاول الليل عما كنت اعهده * لما نأيت وبت الجفن في قصر
وهماً به مثل التذكار شخصك لي * طال الظلام فطالت مدة السهر

واما ما ذكرت من امر البرغوث فهو في الاماكن القذرة يعوث وقد يوجد في زمانك كما قيل

يا للبراغيث طول الليل راتعة * أجل وطول نهار الصيف في جسدي
بليت منها بما تبلى الكرام به * من اللئام وهل البغي والحسد

على انه قد قال الشاعر في مدحه

لا تكره البرغوث ان اسمه * بر وغوث لك لو تدري
فبره مص دم فاسد * والغوث يقاظك للفجر

وقد ذكر العلماء فوائد لدفعه وطرده ومنعه لكن لا يخفى ان شرط العزيمة الهمه وهي العزم الجازم كما قيل تمه

اذا تخلفت امرا كنت تعهده * يجري الزمن على مجرى عوائده
فانما انت لم تكمل شرائطه * وان ذاك التواني من فوائده

ثمّ قال معنفاً للصيف ياصاحب الحيف تجعل محاسني عيوبا · وقد كان العيب عليك مضروبا · اما تنظر الى يومك الطويل · الذي هو كيوم الحساب وليلك القصير المهيل · الذي تخرج فيه الدواهي من النقاب واذا تعاطى الشراب فيه الندامى · اصبحوا وهم امراض ندامى · الم تسمع من قال سيف زماني معترفا بشاني

اسقني شربة الد عليها * واسق بالله مثلها ابن هشام

عسلاً بارداً بماء سحاب * انني لا احب شرب المدام

فقام الصيف واشهر السيف وزجر وصال وسطا وقال · اما طول نهاري فذالك من علو مقداري كيف لا وقد جعله الله معاشا وجعل فيه من الربح انتعاشا ومن كان فرحا مسرورا يراه قصيرا قال الشاعر

وقصر يوم الصيف فيه وليلة الشتاء سرور منه رفوف طائره

وقال الاخر

يطول اليوم لا القاك فيه * ويحول بالتي فيه قصير

فله اسوة بطول ليالك لكن لا سواء ان كنت من اهل الانصاف والخدوى واما قصر ليلي فمن عدم ثقلي ومن الفرح والسرور وزوال الكدر والشرور كما انشدت بنفسك من الشعر ولا تشعر يا مغرور ورحم الله من قال يا مغرور

لست ادري طال ليلي ام لا * كيف يدري بذالك من يتقلى

لو تفرغت لاستطالة ليلي * ورعي النجوم كنت مخلا

ان للعاشقين عن قصر الليـل وعن طوله من الهم شغلا

وقد تغزلت الشعراء بقصر ليل ربيعي بنظم يفوق الشعرا بحسن النوع البديعي · قال العلامة السعد في مختصره مانصه : وقد وقع في بعض اشعار العجم النهي عن التعجب مع التصريح باداة التشبيه وحاصله لا تعجبوا من

قصر ذوائبه فانها كالليل ووجهه كالربيع والليل في الربيع مائل الى القصر وهذا المعنى من الغرابة والملاحة بحيث لا يخفى انتهى وقد نظمه مسند الحجاز وزينة الزمان السيد احمد بن زيني دحلان بقوله

وجه الحبيبة كالربيع وشعرها * كالليل في الديجور حين يصير
لكن اتت تلك الشعور قصيرة * فتعجب النقاد وهو بصير
فاجبتهم لا تعجبوا يا سادتي * ليل الربيع لدى الانام قصير

ونظمه العلامة المفضال الشيخ احمد امين بيت المال لا زال في عز واقبال بقوله

عجب العواذل من اضاءة وجهها * وقصور شعر بالسواد شهير
فاجبتهم هو كالربيع وشعرها * كالليل وهو لدى الانام قصير

ونظمه ابو بكر هذا بقوله

لا تعجبوا من ذا القصير ذوائبا * وجماله بين الانام بديع
شعر كليل والربيع كوجهه * والليل يقصر حين حل ربيع

ونظمه ايضاً بقوله

لا تعجبوا من شعرها المتقاصر * وجمالها الباهي كبدر باهر
فالشعر ليل والربيع بوجهها * والليل يقصر في الربيع الزاهر

واما قولك لا يطيب فيه الشراب وانه يمرض الاحباب فهو فرية بلا مرية كيف ذلك ومجلسهم منظوم بالبدر والنجوم والنسيم بينهم يدب ويحوم قال الشاعر

وقد اضاءت نجوم مجلسنا * حتى اكتسيت غرة واوضاحا
ان جمدت راحنا عدت ذهبا * ودب تفاحنا بد راحا

وقال الآخر

يا حسنها ليلة عاد النهار بها * اسنا وضيا وتشراقاً ولالاء

قال الحسن بن وهب نثرا شربت البارحة على وجه السماء وعقد الثريا

ونطاق الجوزاء فلما انتبه الصبح نمت ولم استيقظ الا بعد ان لبست قميص الشمس افي ليلك يلذ الشراب وقد اوقدت النار وطار الشرار وكثر الدخان وعمشت العينان وسالت المنخران وتلجلج اللسان وبحت الاصوات وضاق المكان وسدت الاخراق والابواب والرعدة تدخل عليهم من كل باب

ورعدة كقارئ متعتع * او خاطب تجلجج لما ان خطب
كاسد يزئر او جنادل * تصطك وامواج بحر تصطخب

فما زلت تحبس الناس في الكن الذي هو عن السماء وزينتها مستكن وانا امتع النفس بها ولا من سيما يبدرها بهجة الزمن فينظرون ويتعجبون ويرصدون ويحسبون يطيب لهم السهر ويلذ السمر مع نجومها وبدرها وحسن منظرها وتلألؤ نورها وانتظام دررها وما هي الا كما قيل كانها روضة مزهرة او صرح كنس جواريه مسفره او غدير تطفو عليه الفواقع . او بنفسج نور اقاحه لامع . او مسح القي عليه درر غواص او ستر به لعين كل نجمه وصواص او جمر في خلال رماد او كما قال من اجاد

بساط زمرد نثرت عليه * دنانير تخالطها دراهم

ولله در القائل

رب ليل صحبته كسعف البا * ل حليف هم تثبيت
تحت سقف من الزبرجد قد * رصع حسنا بالدر والياقوت

وما ابلغ قول الآخر

وبتنا نراعي الليل لو يطوى برده * ولم يجل شيب الصبح في فوده وخطا
تراه كملك الزنج في فرط كبره * اذا رام مشيا في تبختره تخطا
مطلاً على الافاق والبدر تاجه * وقد جعل الجوزاء في اذنه قرطا

وحسبك ذما بين الملا قولهم في المثل اضيع من قمر الشتا كما قال الشاعر

حاطر يصنع الفرزدق في الشعـ * ـر ونحو يبيك ام الكسائي

غير اني اصبحت اضيع القو * م من البدر في ليال الشتاء

فقام الشتاء وعبس وتأوه وتنفس وقال رويدا يا هذا كم تهذي بهذا الم تعلم بان الحكم على الشيء فرع عن تصوره كيف تعيبه من غير ادراكه وتدبره والامعان في منظره والوقوف على مخبره اما الكن الذي في ايامي ويعلو به مقامي فهو مجلس قد انتظم واحتبك وازرى بالسماء والفلك عقد فيه لواء الفرح والظفر علي راس الانس والسمر وغدا عرف نده يضوع وقد اضاء بالشموع

شهب اذا جلب الظلام جيوشه * جلبت جيوش الصبح قبل اوانها

وقد اشرق بوجوه الندامى الذين فضلهم قد تسامى بمقام معلوم يعلو على النجوم من كل ماجد شريف ولطيف ظريف وخليل صديق وذي طبع رقيق وحبيب يغار منه بدر الدجا وتنكسف منه شمس الضحى

اضاءت لهم احسابهم ووجوههم * دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

ويتفاوضون في حديث من قديم وحديث ارق من النسيم واحلى من التسنيم والشرح يطول وهذا احدهم يقول

وعشنا على رغم العذول بغبطة * كأنا خبايا السر في صدر كاتم

كأن ليالينا وقد طاب وقتها * بقايا سواد الكحل في جفن نائم

ويقول الاخر

ولي ولها اذا الكاسات دارت * رقى سحر تحل عرى الهموم

معادثة الذّ من الاماني * وبث جوى ارق من النسيم

ووصف بعضهم ذلك المجلس فقال

ومجلس لذة امسى دجاه * يضيء كانه صبح منير

تجمع فيه مشموم وراح * واوتار وولدان وحور

تلذذت الحواس الخمس فيه * بخمس يستتم بها السرور

فكان الضم قسم اللمس فيه * وقسم الذوق كاسات تدور

والسمع الاغاني والغواني * لاعيننا وللشم البخور

ثم قال يا هذه اتفخر بقمر السماء و بدر الدجى الذي يبدو اول الشهر ناقصاً و يكون في اخره قالصا وتذكر المثل الذي في جاء ففيه نوع هجاء عند من لم يعرف قدري وينظر الى بدري كيف لا وحسنه في اتساق لا لا يعتريه كلف ولا محاق

بدري ارق محاسنا * والفرق مثل الصبح ظاهر

ولسان حالي يقول

ليل الحمى بات بدري وهو معتنقي * وبات بدرك مرميا على الطرق
شتان ما بين بدر صيغ من ذهب * وذاك بدرى و بدر صيغ من بهق

ولو سمعت ما قال في القمر بعض اهل الظرف والنظر لم يفتخر به واليه لم تنظر قيل له انظر الى القمر ما احسنه فقال والله ما انظر اليه لبغضي فيه قيل ولمَ ذلك قال لان فيه عيوبا لو كانت في حمار لرد بالعيب قيل وما هي قال ما يصدقه العيان و يشهد به الاثر فانه يهدم العمر و يقرب الاجل ويحل الدّين و يوجب كراء المنزل و يقرض الكتان و يغير الالوان و يسخن الماء و يفسد اللحم و يورث الزكام و يعين السارق و يفضح العاشق الطارق قال بعضهم اذا نام الانسان في ضوئه احدث في بدنه نوعا من الاسترخاء والكسل و يهيج عليه الزكام والصداع وقال ابن المعتز

يا سارق الانوار من شمس الضحى * ما مثل نورك في الدجى منغص
اما ضياء الشمس فيك فناقص * وارى زيادة حرها لم ينقص
لم يظفر التشبيه منك بطائل * متسلخ بهقا كوجه الابرص

وقال الاخر

لو اراد الاديب ان يهجو البد * ر رماه بالخطة الشنعاء
قال يا بدر انت تغدر بالسا * رى وتغرى بزورة الحسناء
كلف في بياض وجهك يحكي * نمشا فوق وجنة برصاء

يعتريك المحاق سيف كل شهر * فترى كالقلامة الجحفاء

وقال الاخر في مليح عليه اخلاق

ترى الثياب من الكتان يلمحها * نور من البدر احيانا فيبليها

فكيف تنكر ان تبلى غلائله * والبدر في كل وقت طالع فيها

وهو مأخوذ من قول الاخر

لا تعجبوا من بلى غلالته * قد زر ازراره على القمر

على انه قد قال بعضهم للوليد بن يزيد في كلام دار بينهما عجبت لمن لم تحرقه الشمس ولم يغرقه المطر كيف لا يشرب الا مصحرا فوالله ما شرب الناس على احسن من وجه السماء اوسعة الفضاء ورقة الهواء وخضرة الكلاء وقمر الشتاء ويكفيك ذما وهجاء انك معدود من جملة النساء كما قالت العرب. الشتاء ذكر والصيف انثى . فقام الصيف وقال انظروا ايها الرجال الى هذا المعجب المختال والجهول الضال واسمعوا هذا الخبال سيف ذم البدر والهلال افي المحسوس جدال لقد صدق من قال اذا لم تستح فاصنع ما شئت وقد صح المثل المشتهر نبح الكلب القمر ويكفي القمر مدح الله له الذي رفعه واجله وفي تلك المنازل احله اسكنه السماء وخوله وجعل النجوم عساكره وخوله واقسم به في قوله والقمر اذا اتسق فآيات القمر ظاهرة كالفلق كم اوضح من طريق وهدى الرفيق الى الطريق وذكر محبوبا بمحبوبه و بلغ طالبا غاية مطلوبه . به يشبه كل وجه حسن ويتمثل به في كل ما يستحسن بسببه تزيد المياه ويكثر الدم الذي هو سبب الحياة وليالي به تبرد والنسيم عند طلوعه يتردد وبه يصلح الزرع ويحصل النفع الم تسمع ما يحكى ان اعرابيا نام ليلة عن جمله ففقده فلما طلع القمر وجده فرفع الى الله يديه وقال اشهد انك قد اعليته وجعلت السماء بيته ثم نظر الى القمر فقال ان الله صورك ونورك وعلى البروج دورك واذا شاء قورك ولو شاء كورك فلا اعلم مزيدا اسأله لك فلئن اهديت الى قلبي سرورا فقد اهدى

الله اليك نورا ثم انشد يقول

ما ذا اقول وفيك القول ذو خطل * كفيتني فيك ذا التفصيل والجلا
ان قلت لا زلت علوياً فانت كذا * او قلت زانك ربي فهو قد فعلا

وما احسن قول الآخر

وحديقة غناء ينتظم الندا * بفروعها كالبدر في اسلاك
والبدر يشرق من خلال غصونها * مثل المليح يطل من شباك

وتعرض بنقص الهلال الم تسمع من قال

ولاح لنا الهلال بشطر طوق * على لبات زرقاء اللباس

وقول ابن المعتز

اهلاً بفطر قد انار هلاله * فالآن فاغد الى المدام وبكّر
وانظر اليه كزورق من فضة * قد اثقلته حمولة من عنبر

وقول الاخر

يامن بغرته الهلال ما ترى * بدر الهلال وقد بدا في المشرق
كظريفة نظرت الى عشاقها * فتنقبت خجلاً بكم ازرق

وقول الاخر

وكؤس دارت علينا بليل * تحت سقف مرصع باللجين
وكأن الهلال مرآة تبر * تنجلي كل ليلة اصبعين

وقول الاخر

هلال شوال مازالت مطالعه * يرنو اليها الورى من شدة الفرح
كاصبع من نديم قد اشار الى * ساق لطيف يروم الاخذ للقدح

وقول الاخر

ان هلال الفطر لما بدا * مستحسناً في اعين الناس
وددت ان التمه عندما * راح يحاكي شفة الكاس

وقول ابن المعتز

زارني والدجا اسم الحواشي * والثريا في القرب كالعنقود
وهلال السماء طوق عروس * بات يجلى لي في غلائل سود

وقد اورد الادباء اكثر من سبعين تشبيها للهلال ياذا القيل والقال ثم انك تزعم ان العرب قالت الشتا ذكر والصيف انثى لا ابلغك الله الارب ما اجهلك بلغة العرب ما انت الا جارف سيل وحاطب ليل لانه يتضمن التشنيع عليك فالذم يهدى منك اليك والمدح يهدى اليَّ منك وهو حجة عليك لا لك لان هذا من باب التشبيه والمبالغة اي ان الصيف كالانثى بجامع اللين والرحمة البالغة وذلك كما يقال ولا تشبيها الله ارحم من الوالدة بولدها وكأنك نسيت ماقيل ببرد العجوز التي على البلا تحوز ويقـال انها سبعة ايام نظمها بعضهم بقوله

كسع الشتاء بسبعة غبر * بالصن والصنبر والوبر
وبآمر واخيه مؤتمر * ومعلل ومطفيء الجمر

اخبرني اي يوم فيك يحمد اهو اليوم الاحص الورد المصحى الذي يصفو بشماله وتحمر آفاقه او الأزب الهلوف الذي تهب بنكبائه ويكثر جهامه وقتامه ولسان الحال يقول

قد اخضر الوجه حتى لو جعلت ضحى * نار تأجج فوق الوجه ما احترقا

فقوهم فيك ذكر مع المقابل الذي ذُكر وصف بالشدة والقسوة والحدة كيف لا واذا جئت عج الناس عجيجا وضجوا ضجيجا ونوّهوا باسم من وامسى فيه وآوى واوقد نويرة وبذل طعيما قال الشاعر

فقانبك من ذكرى قميص وسروال * ودراعة لي قد عفا رسمها البـالى
ولا سيما والبرد وافى بريده * وحالي على ما اعتدت من عسره حالى

وقول الاخر

ان فصل الشتاء منذ نحا جسمي * أبدت بيانه الاعضاء

فيه يحتمي غريي اذ عز * الكسا فيه واحتمى الغرماء

قال البدر الساري الشيخ عبد الحفيظ القاري

جاء الشتاء الذي مازلت ابغضه * في كل حال من الاحوال في زمني
البرد فيه قوي كالح وبه الاحزان * تكثر والامراض في البدن
الم فيه كثير والرفاق غدوا * والانس ادبر والاقبال في الحزن
شبهته بعذاب قد اتى وبه * حبس ونار عسى الرحمن يرحمني
فالدم يجري دواما من يدي ومن * رجلاي يارب كثر اللبس امرضني

فانت عذاب وبلاء وعقاب ولأواء يغلظ فيه الهواء ويستحجر له الماء وتكثر الانداء وتتحجر الفقراء ويتساقط ورق الشجر ويموت اكثر النبات والزهر وتضعف قوى الابدان ويظلم الجو ويكلح وجه الارض ويهرم وجه الزمان وتصير الدنيا كانها عجوز هرمة قد دنا منها الموت وآن وما ظنك بما يزوي الوجوه ويعمش العينين ويسيل الانوف ويغير الالوان ويقشف الابدان ويميت كثيراً من الحيوان فكم فيه من يوم ارضه كالقوارير اللامعة وهواؤه كالزنابير اللاسعة وليل يحول بين الكلب وهريره والاسد وزئيره والطير وصفيره والماء وخريره قال الشاعر

قد منع الماء من انس * وامكن الجو من الجس

وقال الاخر

وشتاء يخنق الكلـ * ـب فلا يعلو هريره
كلما رام هريرا * زم فاه زمهريره

وهو ماخوذ من قول الاخر

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة * حتى يلف على خيشومه الذنبا

قال الرشيد ما ابلغ بيت في شدة البرد فانشد هذا البيت بعضهم فقال ابلغ منه

وليلة نحس بصطلي القوس ربه * واسهمه اللاتي بها يتنبل

فقال حسبك ما بعد هذا شيء قيل لاعرابي ما اشد البرد قال اذا اصبحت الارض ندية والسماء نقية والريح شامية ٠ وقيل لآخر فقال اذا دمعت العينان وقطر المخزان وتلجلج اللسان ٠ وقال الاخر برد يغير الالوان وينشف الابدان ويجمد الريق في الاشداق والدمع في الاماق وقال اخر يوم جمد خمره وخمد جمره يثقل فيه الخفيف اذا هجم ويخف الثقيل اذا هجر نحن فيه بين اطباق البرد ورجم البرد فما نستغيث الا بحر الراح وسورة الاقداح ٠ ووجد اعرابي البرد فقيل له هذا لكون الشمس في العقرب فقال لعن الله العقرب فانها مؤذية في الارض كانت ام في السماء وقال ابن سمعون : البرد بالري رافضي يقول بالرجعة اي متى ذهب رجع وقيل لاعرابي يرتعد في يوم شات تحول الى الشمس فقال الشمس تحتاج اليوم الى قطيفة قال الشاعر

ويوم برد بدت نفسه * تخمش الاوجه من قرصها
يوم تود الشمس من برده * لو جرت النار الى قرصها

وقال الشاعر

يوم من الزمهرير مقرور * عليه ثوب الصباء مزرور
كانما حشو جوه ابر * وارضنا فرشها قوارير
وشمسه حرة مخدرة * ليس لها من ضيائها نور

وقال اخر

جاء الشتاء ومسنا قر * واصابنا في عيشنا ضر
ضر وفقر نحن بينهما * هذا لعمر ابيكم الشر

حبست الناس في البيوت عن الاسباب ونيل الاوطار والاكتساب وخذلتهم عن الصلاة والعبادة واقامة الجمعة والجماعة

وقال الشاعر

اقبلت يا يوم ببرد اجرد * تفعل بالاوجه فعل المبرد

اظل في البيت كمثل المقعد * منقبضاً تحت الكساء الاسود
لو قيل لي انت امير البلد * فهات للبيعة كف تعقد
لكنت كالاقطع لم اخرج يدي

وقال الاخر

وليلة نزل البرد البلاد بها * كالقلب اشعر باسا فهو مثلوج
فان بسطت يداً لم تنبسط حصراً * وان نقل فبقول فيه تثبيج
فنحن فيها ولم نخرس ذووا خرس * ونحن فيها ولم نفلج مفاليج

وقال الاخر

شتاء تقلص الاشداق منه * وبرد يجعل الولدان شيبا
وارض تزلق الاقدام فيها * فما تمشي بها الا دبيبا

قيل لاعرابي في الشتاء ما تصلي قال البرد شديد وما عليَّ كسوة اصلي فيها وقال

ان يكسني ربي قميصا وريطة * اصلي واعبده الى آخر الدهر
وان لم يكن الا بقايا عباءة * مخرقة مالي على البرد من صبر

وقال الاخر نحن في الشتاء بين لثق وزلق ودمق : وقال الآخر

نحن في شتوتنا في قلق * وتمادى شفق في فرق
ليس يخلو يومنا والليل من * لثق او زلق او دمق

هبت ريح شديدة فقيل قامت القيامة فقال زبدة المخنث هذه قيامة على الريق بلا خروج الدجال ولا دابة الارض ولا طلوع المهدي فلما فرغ من كلامه صار الشتاء اصرد من عين الحرباء والعنز الجرباء ثم قام وقعد وانشد وردد وارعد

لو لم تكن لي في القلوب مهابة * لم يطعن الاعداء فيَّ ويقدح
كالليث للاهيب حط له الزبى * وعوت لهيبته الكلاب النبح
يرمونني شزر العيون لانني * غلست في طلب العلا وتصبحوا

وقد اجبتك عن بعض ذلك وذكرت ثناء الفضلاء على ما هنا لك ولولا خوف الاطالة في هذه المسالك لفصلت الرد ونورت الحالك وعلى سبيل الفرض والتنازل للقائل فيغتفر ذلك فى جنب فضلي الشامل ان الحسنات يذهبن السيئات ورحم الله من قال واجاد في المقال

ما كان احوج ذا الكمال الى * عيب يوقيه من العين

ولقد اجاد القائل بما هو الفصل الفاصل

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها * كفى المرء نبلا ان تعد معائبه

وانما المصيبة العظمى المعائب التي لاتحصى ومن كله عيب في الاسم والمسمي وهو يتخبط كالاعمى ومن سارت في ذمه الرسائل من كل غني وسائل فقد كتب بعض الكتاب الى رفيقه كيف لي بالحركة وقد قوى سلطان الحر وفرش بساط الجمر لاسيما وفيه الهاجرة التي هي كقلب المهجور والتنور المسجور وكتب بعضهم اشتعل كل شيء ظله وقام قائم الهاجرة ورمت الشمس بجمرات الظهيرة وكتب اخر لامرحبا بالصيف من ضيف فهو عون على الحيات والعقارب وام الذباب والخنافس وخثر البق الذي هو آفة الخلق ثم قال فيه

من كل سائلة الخرطوم طاغية * لايحجب سجف مسراها ولا الكلل

طافوا علينا وحر الصيف يطبخنا * حتى اذا انضجت اجسامنا اكلوا

وقد قال بعضهم حر الصيف كحد السيف وقال بعضهم حر يشبه قلب الصب ويذيب دماغ الضب وسئل بعضهم كيف كان الهواء البارحة قال مات ولم يكن له نفس وقال آخر سدت الرياح فانسدت طرق الارواح وقال الشاعر

قد اقبل الصيف وولى الشتا * وعن قليل نسأم الحرا

اما ترى البان باغصانه * قد قلب الفرو الى ورا

ولله در القائل

قد هجم الصيف وولى الشتا * منهزماً تبيع آثاره
مبتدعاً يسلب اثوابنا * ويخرج المالك من داره

وقال اخر

حرٌ وَجدِ وحرٌ صدٍ وحرٌ * اي شيء يكون من ذا امرٌ

قال الآخر

ويوم كأن المصطلين بحره * وان لم يكن جمر قعود على الجمر

فلما فرغ من مقاله وقام يجرجر في اذياله قال له الصيف رويداً ومهلاً فانك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا فجميع ما ذكرته من الاكاذيب المزخرفة والاقاويل المزيفة اما سمعت ما قاله الاعرابي حين قيل له ما تصنع بالبادية اذا انتصف النهار وانتعل كل شيء ظله فقال وهل العيش الا ذاك يمشي احدنا ميلا فيرفض عرقا كانه الجمان ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساه وتقبل عليه الرياح من كل جانب . ايا هذا اسمع مني كلاما جزلا وقولا فصلا ودعنا من تلك المبالغة والمجازفة واعرض جواهره على الصيارفة وذوى النظر والعرفان وعند الامتحان يكرم المرء او يهان

من تحلى بغير ما هو فيه * فضحته شواهد الامتحان
وجرى في العنا جري سكيت * خلفته الجياد يوم الرهان

فها انا اقول هذه القضايا المسلمة البرهان التى قد سارت بها الركبان انا الصيف خفيف المؤنة جليل المعونة كثير المنفعة قليل المضرة عظيم المبرة ابو الحب والرياحين وام بنات البساتين وراحة الفقراء والمساكين وستر الضعفاء والمتحملين والعون على عبادة رب العالمين طبعي طبع الشباب الذي هو باكورة الحياة بلا ارتياب كما ان الشتاء طبعه طبع الهرم الذي هو باكورة العدم فانه كما قال الحبيب ابن حبيب نصرت بالصبا . واوتيت حكمة في زمن الصبا . في نضج الجادة وتنضج من الفواكه المادة ويزهو

البسر والرطب و ينصلح مزاج العنب و يقوى قلب اللوز و يلين عطف التين والموز وينعقد حب الرمان فيقمع الصفرا و يسكن الخفقان وتخضب وجنات التفاح و يذهب عرف السفرجل مع هبوب الرياح وتسود عين الزيتون وتخلق تيجان النارنج والليمون مواعيدي مفقودة وموائدي ممدودة الخير موجود في مقامي والرزق مقسوم في ايامي الفقير ينصاع بملء مده وصاعه والغني يرتع في ربع ملكه واقطاعه والوحش تأتي زرافات ووحدانا والطير تغدو خماصا وتروح بطانا

مصيف له ظل مديد على الورى * ومن حلا طعما وحلل اخلاطا
يعالج انواع الفواكه مبديا * لصحتها حفظا يعجز بقراطا

و يكفيني فخرا ان زمن صباي هو الربيع صاحب المزايا والمقام الرفيع قال بعض الحكماء هواء الربيع مورق فتلقوه وهواء الشتاء محرق فتوقوه فعله في اجسادكم كفعله في اشجاركم وقال بقراط الحكيم من لم يبتهج بالربيع وازهاره ولم يستمتع ببرد نسيمه فهو فاسد المزاج محتاج الى العلاج قيل والعود واوتاره وكان المأمون يقول اغلظ الناس طبعا من لم يكن في زمن الربيع ذا صبوة ولله در ابن المعتز حيث قال الارض في زمن الربيع عروس مختالة في حلل الازهار متوجة باكاليل الاشجار متوشحة بمناطق الانهار والجو خاطب لها قد جعل يشيل بخصره البرق و يتكلم بلسان الدمع و ينثر من القطر ابدع نثار اي و تغني الاطيار و يشدو الهزار و ترقص الغصون وتصفق المياه وتغمز العيون و يصطف الليل والنهار وطائر الفرح بينهما قد طار وضحكت الارض وابتسم الأقحوان واحمرت خدود الارض واهتز عطف البان واخضر عجبا عذار الريحان و تنبه طرف النرجس الوسنان قال الشاعر

ما الدهر الا الربيع المستنير اذا * اتى الربيع اتاك النور والنور
فالارض فيروزج والجو لؤلؤة * والروض ياقوتة والماء بلور

وقال الاخر

ان هذا الربيع شيء عجيب * تضحك الارض من بكاء السماء
ذهب حيثما ذهبنا ودر * حيث درنا وفضة في الفضاء

وقال الشاعر

سألت الغصن لم تعرى شتاء * وتبدو في المصيف وانت كاسي
فقال لي الربيع على قدوم * خلعت على البشير به لباسي

وقال الآخر

لما زها زهر الربيع بروضة * وغدا له فضل يبين عليه
قام الحمام له خطيبا بالثنا * وجرى الغدير تخرّ بين يديه

فلما سمع كلامه الشتاء انشد مصوتا

واصعب ما حاولت تثقيف اعوج * واصعب شيء جاهل متعاقل

هذه قضايا فاسدة القياس واهية الاساس انما سمعت ما هو كالمثل ان السم في ذاك العسل ولكن خذ مني وحدث عني فان محاسني كثيرة وفضائلي شهيرة طول الليل الذي جعله الله سكنا ولباسا للانام وبرد الماء الذي هو مادة الحياة والقوام وانقطاع الذباب والبعوض وعدم ذوات السموم من الهوام وانا حبيب الملوك العظام والبيض المتنعمين الكرام يطيب لهم في زمني الاكل والشراب ويجتمع فيه شمل الاحباب ومن ليس له بي طاقة اغلق من دونه الباب ويسخن جوف ويطيب العناق وتتمتع فيه بالملابس والفرش في جميع الافاق ولذلك ضرب مثل بخريم الناعم وهو خريم ابن عمرو بن مرة بن عوف قيل له الناعم لانه كان يلبس الخلق في الصيف والجديد في زماني الذي هو ضد الصيف الذي يظهر فضل الغنى وانا زمان الراحة والهنا كما ان الصيف زمان الكد والعنا ولذلك قالوا من لم يغل دماغه صائفا لم تغل قدوره شاتيا كما قيل

وان الذي لم يغل صيفا دماغه * وجدت لا تغلى شتاء قدوره

كذلك مقسوم المعايش في الورى * بسعي ورعي تستبين اموره

واني مع ذلك كما قال الحبيب ابن حبيب ايامي وجيزة واوقاتي عزيزة ومجالسي معمورة بذوي السيادة مغمورة بالخير والمير والسعادة نقلها يأتي من انواعه بالعجب ومناقلها تسجع بذهب اللهب وراحها تنعش الارواح وسقاتها بجفونهم السقيمة تفتن العقول الصحاح ان اردتها وجدت مالاً ممدوداً وان زرتها شاهدت لها بنين شهودا

واذا رميت بفضل كاسك في الهوى * عادت عليك من العقيق عقودا
ياصاحب العودين لاتهملهما * حرّك لنا عودا وحرّق عودا

ثم انك ياهذا تفتخر بربيعك الذي هو غرس يدي وسؤر كاسي واثري من بعدي كما قال الشاعر

تركت مقدمة المصيف حميدة * ويد الشتاء جديدة لاتكفر
لولا الذي غرس الشتاء بكفه * قاسى المصيف هشائماً لاتثمر

ولذلك ينسب الي فيقال البرد المستطاب برد الورد وهو برد الربيع الذي تفتخر به ايها الوضيع فحق لي حينئذ ان افتخر بالخريف ذي المقام الشريف فانه مقدمة جيشي وايام كهولتي ولذة عيشي في ايامه تجنى الثمار وتتلون ورق الاشجار وتصفو المياه والانهار

قال الشاعر

جاء الخريف وعندي من حوائجه * ستع بهن قوام السمع والبصر
موز ومز ومحبوب ومائدة * ومسمع ومدام طيب ومري(١)

فلما سمع كلامه الصيف انشد وقد قوي عزمه واشتد

---

(١) قال داود في التذكرة مري من الادوية القديمة التي استخرجها الكلدانيون والقبط واجوده المتخذ من دقيق الشعير والفوتنج البرّسي المعمول صيفاً واطال في منافعه ٠ اه ابو بكر

ومن البلية عذل من لا يرعوي * عن غيه وخطاب من لا يفهم

بكرر هذا الرجل كلامه ويموّه مرامه وقد رددت عليه ذلك والجئته الى اضيق المسالك يفتخر هذا الخروف بالخريف لقد خرف وبالغ في التخريف يقابل الخريف بالربيع يساوي بين الرفيع والوضيع والخزف واللجين والعسجد والنحاس ماهذا الا افتراء ومَين ظاهرٌ لجميع الناس وقد قيل ان برد الربيع مونق وبرد الخريف موبق وهو كطبع الموت في البرودة واليبس يسرع هواؤه في الجسد ويؤذي النفس قال بعضهم

لايمكن الناس اتقاء شره * من اختلاف برده وحره
تبصره مثل الصبي الارعن * في كثرة التغيير والتلوّن

وقال الآخر

لاتأمنن فصل الخريف فانه * مستعذب وهواؤه خطاف
يسري من الارواح في اجسادها * بلطافة ومن اللطيف يخاف

وقال الاخر

ولي صاحب كهواء الخريف * مضر وان كان يستعذب
له منطق كليالي الشتاء * طويل على برده مسهب
بذلت له خُلُقًا كالربيع * يطيب ومخبره اطيب
وان كان قلبي به كالمصيف * سموم الهموم به تلهب

وها انا ازيده بعض احاديث وردت في ذمه عن ابن عباس يرفعه ان الملائكة لتفرح بذهاب الشتاء رحمة للمساكين وكان صلى الله عليه وسلم يتعوّذ من كلب الشتاء وقد روي اتقوا البرد فانه قتل اخاكم ابا الدرداء وقال بعض السلف الشتاء عدو الدين وهلاك المسلمين . فقال الشتاء وهو ملتف ببرده سبحان الله وبحمده يهذي هذا الرجل ولا يدري ولا يدري انه لايدري قد عمل بقول القائل وتلقى عنه تلك المسائل

ان شئت تدعى فقيه قوم * فطوّل الكمَّ ثم عمّم
وخذ من الثوب طيلسانا * واعقده فوق كيك واختم
واجلس مع القوم في جدال * لا بالبخاري ولا بمسلم
بهزّ عطف ونفض كم * وقول لا لا ولا اسلم
ثيابهم بيضت رياء * وقلبهم بالسواد مظلم
ان وجدوا الوقف ياكلوه * مالوا عن العلم والمعلم

يأتي بالحديث ولا يعزيه الى راويه ولاالى واحد من الكتب المعتمدة في مجاريه وحديث اتقوا البرد قال السخاوي فيه لا اعرفه فان كان واردا فيحتاج الى تأويل فان ابا الدرداء عاش بعد النبي صلى الله عليه وسلم دهرا . انتهى ولقصر باعه وعدم اطلاعه جهل قوله صلى الله عليه وسلم الشتاء ربيع المؤمن قصر نهاره فصامه وطال ليله فقامه وقوله الصوم في الشتاء الغنيمة الباردة وقوله مرحبًا بالشتاء فيه تنزل الرحمة اما ليله فطويل للقائم واما نهاره فقصير للصائم وعن قتادة قال لم ينزل عذاب قط من السماء على قوم الا عند انسلاخ الشتاء ويكفي ماجاء في حقك من الذم قوله صلى الله عليه وسلم ابردوا بالظهر فان شدة الحر من فيح جهنم . فقام الصيف معبسًا وقال سحقًا لك وتعسًا ماهذا التمويه فيما ترويه تنهي عن الشيء وتأتيه ثم انشد

يا ايها الرجل المعلم غيره * هلاّ لنفسك كان ذا التعليم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا انتهت عنه فانت حكيم
لاتنه عن خلق وتأتي مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

اما الحديث الذي اوردته في ذمي فقد ورد نظيره فيك كذلك مما يمكن حمله على المجاز في هاتيك المسالك واما الاحاديث التي اوردتها في مدحك ففيها مقال ولم تبلغ درجة الصحة التي يصح بها الاستدلال ولو اردت ان اذكر مثالها في حقي لطال المجال وما كل ما يعلم يقال وقد

حفظت شيئاً وغابت عنك اشياء . فقال الشتاء لعلك تعني قوله صلى الله عليه وسلم من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت منه جهنم مسيرة مائتي عام هكذا ذكره ابو الوليد الازرقي في تاريخ مكة بغير اسناد ثم الزمخشري في آل عمران من تفسيره واورده الديلمي من حديث انس بلفظ تباعدت عنه جهنم مائة عام وتقربت منه الجنة مائة عام فقام الصيف مغضباً وقال واحرباه واحرّ قلباه ممن قلبه شبم دع عنك هذا الاستهزاء وضياع الوقت سدى وملء الصحيفة بذكر الاحاديث الضعيفة ان اردت المناظرة والجدال بشروطها المعتبرة عند الرجال فاخرج الى هذا الميدان في هذا المجال وانا اسمعك من المقال ما هو اشد من وقع النبال وصفع النعال فشمر الشتاء ورفع الاذيال وسار ذات اليمين وذات الشمال وزمجر وسطا وصال وزئر زئير الاسد في القتال فكثر اللغط وكبر الشطط وطال النزال والنزاع وتزايد المقال والدفاع وعلت اصواتهما وارتفعت وارتجت الارض تحتهما وتزعزعت

قال الراوي والرائي للمحاسن والمساوي فقمت اليهما واجلستهما وهونت عليهما وقلت لهما اسمعا هداكما ربكما ما فيه نفعكما هل لكما في الرشد والفلاح والنصر والنجاح قالا ذاك المطلب والغرض والمأرب فقلت لهما اتركا المراء والجدال والقيل والقال فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتاً في اعلى الجنة ومن تركه وهو مبطل بنى الله له بيتاً في ربض الجنة وقال ما ضل قوم بعد هدى الا واوتوا الجدل وقال ان ابغض الرجال الى الله تعالى الخصم الالد وقال تعالى بل هم قوم خصمون وقال وكان الانسان اكثر شيء جدلا وقال تعالى ولا جدال في الحج فقالا نعم ذاك الجدال بالباطل والمودي الى التقاتل والناشيء عن الغرض الفاسد وسوء المقاصد اما اذا كان الجدال بالحق والمقصد حسناً واتخذ المجادل طريقاً مستحسناً فانه يكون متعيناً فقد قال

تعالى وجادلهم بالتي هي احسن . ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن
ولولا الجدال لقال من شاء ما شاء في كل حال اما سمعت قول عالم المدينة
الذي ضربت اليه اكباد الابل بلا شك كل احد يؤخذ من قوله ويترك
الا صاحب هذا القبر الانخم صلى الله عليه وسلم وقول الامام علي كرم
الله وجهه اعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال وقوله

ولست بامّعة في الرجال * اسائل هذا وذا ما الخبر

فقلت لهما انكما قد خرجتما الى الفخر والتفاخر والخيلاء والشتم والسخرية
والاستهزاء وقد قال تعالى فلا تزكوا انفسكم هو اعلم بمن اتقى وقال ان الله
لايحب من كان مختالاً فخورا وقال لايسخر قوم من قوم وقال صلى الله
عليه وسلم من ستر مسلما ستره الله يوم القيمة وحسبكما هذا التعنيف واللوم
وكفى بهما رادعا وزجرا وحقت لكما الندامة ثم انشدتهما قول القائل المرشد الكامل

لابد للكامل من ذلة * تخبره أن ليس بالكامل
بينا يرى يضحك من جاهل * حتى يرى مضحكة الجاهل

فقالا نستغفر الله مما فرطمنا لفرط الغضب وقبح الله اول راي عنده
انتصب ولا عدمنا ناصحا عاقلاً وحكما حكيماً عادلا وما جرى منا ما جرى
الا على قصد امرين بلا مراء الاول التحدث بنعمة الله بين الورى وكفى
بذلك حمدا وشكرا قال تعالى واما بنعمة ربك فحدث وقد جمع بعض
العلماء ترجمته ومزاياه على سبيل التحدث وليقتدي الخلف باثار السلف
والثاني احقاق الحق وابطال الباطل وكشف حال الملبس العاطل وبيان
المدعي بين الافاضل كما هو الواجب على المفاضل المناضل قال في الوهبانية
من كتب السادة الحنفية

من الدين هتك الستر عن كل كاذب * وعن مدعٍ ماليس فيه ويشهرُ

وقال بعض الفضلاء

القدح ليس بغيبة في ستة * متظلم ومعرّف ومحذر

ولمظهر فسقاً ومستفت ومن * طلب الاعانة في ازالة منكر

واما احاديث من ستر مسلما ستره الله يوم القيمة فقال الوزير ابن هبيرة الحنبلي في شرحه المراد به الستر على ذوي الهيئات ونحوهم ممن ليس معروفاً بالاذى والفساد واما المعروف بذلك فيستحب ان لا يستر عليه بل ترفع قصته للوالي ان لم يخف من ذلك مفسدة لان الستر على هـذا يطمعه في الايذاء والفساد وانتهاك الحرمات وجسارة غيره على مثل فعله وهذا كله في ستر معصية وقعت وانقضت واما معصية رآه عليها وهو بعد متلبس بها فتجب المبادرة بانكارها ومنعه منها على من قدر عليه ولا يحل تاخيرها وان عجز لزمه رفعها لوالي الامر اذا لم يترتب على ذلك مفسدة واما جرح الرواة والشهود امناء الصدقات والاوقات والايتام ونحوهم فيجب جرحهم عند الحاجة ولا يحل الستر عليهم اذا راى منهم ما يقدح في اهليتهم وليس هذا من الغيبة المحرمة بل من النصح الواجب وهـذا مجمع عليه انتهى . ثم قالا نريد ان تحكم بيننا وتجمع ذات بيننا . فقلت لهما انتما عندي كفرسي رهان وقد حزتما المضمار في حلبة البيان ولست احكم بينكما بتقديم واحدمنكما وكلامكما في بعضكما غير مقبول فان كلام الاقران بعضهم في بعض لا يعتبر عند الفحول وداء المعاصرة داء عضال ورحم الله من قال

قل لمن لا يرى المعاصر شيئاً * ويرى للاوائل التقديما
ان ذاك القديم كان حديثاً * وسيبقى هذا الحديث قديما

ولقد اجاد القائل

اولع الناس بامتداح القديم * وبذم الحديث غير الذميم
ليس الا لانهم حسدوا الحي * ورقوا على العظام الرميم

قال الحافظ الذهبي مانصه : كلام الاقران في بعضهم بعضاً لا يعبأ به ولا سيما اذا لاح لك انه لعداوة او لمذهب او لحسد لا ينجو منه الا

من عصمه الله . ماعلمت ان عصرا من الاعصار سلم اهله من ذلك سوى الانبياء عليهم السلام والصديقين فلو شئت لسردت من ذلك كرار يس انتهى . فقالا لانسلم ان كلام الاقران في بعضهم بعضاً لايعبأ به على اطلاقه وعمومه فانتبه فانه لايعرف حال الرجل الا من عاصره ولا يعرف حاله من بعده الا من اخبار من قارنه واهل العلم هم الذين يعرفون امثالهم ولا يعرف ذوي الفضل الا ذو الفضل فينبغي اناطة ذلك بمن علم ان بينهما تنافسا وتحاسدا فيكون ذلك سبباً اكيداً لعدم قبول كلام بعضهم في بعض لالكونه من الاقران والمعاصرين في الزمان فانه لايعرف عدالته ولا جرحه الا من اقرانه اهل فنه وزمانه فقول الذهبي ولا سيما اذا لاح لك انه لعداوة او لمذهب او لحسد هو الذي ينبغي ان يناط به القبول والرد

قال الراوي فادهشني تقريرهما وعظم عليّ امرهما وخفت من الدخول في الحكم بينهما والتعرض لهما علما بان الحكم لايرضى الخصمين ولايجمع ذات البين ورحم الله القائل

ان نصف الناس اعداء لمن * ولي الاحكام هذا ان عدل

وعلما باني لست اهلاً لذلك ولا السير في هاتيك المسالك فلا تخفى صعوبة امر الجرح والتعديل واقامة البرهان على التفضيل والترجيح على التفصيل مع نقض ما اورده كل منهما من دليل وقال وقيل مما يحير عقل النبيل فرايت المخلص من هذا السبيل ان قلت لهما هل ادلكما على حكم عادل وحكيم فاضل يحكم بينكما بالحق ولا يشطط لايفرط ولا يفرط ففرحا وقالا جميعاً من هو لازلت رفيعا فقلت ذاك عين الاعيان وزين الزمان رجل الدنيا وصاحب الهمة العليا رب المروءة والوفا والشهامة والصفا طرفة الطرائف كريم الشمائل كعبة الطائف في حرم الفضائل زينة الحجاز وتهامة حضرة مولانا العلامة الشيخ عبد الحفيظ القاري

لازالت نسخة شمائله عمدة القاري

لانسال الله الا ان يدوم لنا * لاان تزيد معاليه فقد كملت

فقالا هل تحفظ شيئاً من شعره يدل على جلالة قدره فقلت لهما عندى منه شيء كثير ومن ذلك قوله مذيلا على بيت الشريف عبود بطلب امير مكة المرحوم سيدنا الشريف عبد الله بن عون رحمه الله

خطرت تميس وتنثني * ما بين شبرة والعقيق
هيفاء در شفاهها * في وسط حق من عقيق
في روضة ازهارها * وردٌ وآسٌ مع شقيق
تحكي بها وجناتها * ما في الملاح لها شقيق
الغصن منها يختفي * في ظل تفاح وريق
كل المنا في ثغرها * شهد وعناب وريق
السيف من الحاظها * والرمح من قد رشيق
ترمي لواحظ سهمها * فتصيب في قلب رشيق
فالردف تحت الخصر يا * حبي ثقيل في رقيق
والغانيات جعلنني * رقا وما كنت رقيق

ومن ذلك قوله بتشطيري له بطلبه

خطرت فصيرت الفؤاد رهيناً * وبدت فصيرت العيون عيونا
وسطت بخنجر لحظها وقوامها * ورنت فابدت من هواى كمينا
حورية ابدى تبسمها لنا * دررا وياقوتا وخمر سنينا
سمطين من درر الثنايا نظمت * عقدا تحكم في النظام ثمينا
اخفت سنا شمس الضحى بغدائر * سدلت كليل قد تطاول فينا
شمس تغيب بليلها في صبحها * والفرق امسى البدر منه دفينا
لو ان يوسف قد راى اوصافها * اضحى حفيظ ودادها وامينا

لو عاملته بهجرتها وصدودها * امسى بها طول الزمان حزينا
او ان يعقوبا رآها مرّة * لمحت محبة يوسف وبنينا
لو اسعفته بوصلها ورضابها * زال العمى عنه وكف حنينا

ولما نظم اديب الحجاز ذو الفضل الممتاز الشيخ عثمان الراضي المعنى القديم الفارسي بقوله

لاتعجبوا ان احرقت مهجتي * من نظرة غيبت الحسا
فانما عيني بلورة * قد قابلت من وجهها الشمسا

قال ذاك المفضال

ياسائلي عن لهيب القلب كيف اتى * والقلب في شبح الاضلاع قد حجبا
فقلت صدرى كبلور ينم على * قلبي فقابل شمس الخد فالتهبا

فرقصا من ذلك وطربا وكانما خمرة شربا وقالا نفديه بنفوسنا ونجعل حكمه تاج روسنا فأين مقرّه ومأواه ومرتعه وسكناه فقلت لها الطائف المأنوس نزهة النفوس فتأهبا للسير من اقرب طريق ليحظيا بهذا الحكم الرفيق وصاحب الطبع الرقيق فقمت لتوديعهما والدعاء لهما واوصيتهما بالتأدب مع جنابه اذا حطا الرحل برحابه ووقفا ببابه وان يتمسكا بركابه وقلت هنأكما الله بصوابه في تقريره وجوابه وجمعنا به

آمين آمين لا ارضى بواحدة * حتى اضيف اليها الف آمينا

ثم ظهر لي في خلال كلامهما . ولاح لي من الاستشهاد بكلامه في مقامهما . انهما يعرفانه . وقد ترددا على مكانه . فقلت لهما كيف تجهلان ذلك المفرد العلم . ومن هو كنار على علم . فضحكا وقالا قد استقصينا بحثاً وسوآلاً تلذذاً بذكر ذلك الحبيب وهاتيك السجايا وعذوبة حديثه وتذكر تلك المزايا

اعد ذكر نعمان لنا ان ذكره * هو المسك ما كررته يتضوع

كيف وهو قد اعدّ في داره لنا حلتين . وضيافة في كلا الرحلتين . فنحن له كالسمع والبصر . وكالشمس والقمر . لكل واحد منا معه وقت معلوم . ليس له في غيره هجوم . قال الراوي فانحسم الخصام . وانقطع الكلام . وانصرفا صرف الله قلوبهما . وكفانا شرهما . وقد استيقظت ولسان الحال يقول . نادماً على ما فرط من الفضول

افرح بالبرد اذا ما انقضى * وفي زمان الحرّ بالحرّ
وفي انقضاء البرد والحرّ لو * عقلت امري ينقضي عمري

فاستغفر الله مما زلت به القدم . او طغى فيه القلم . واسأله ان يحسن لنا الختام . وان يعفو عن الآثام . واقدم ذلك هدية الى المشار اليه اعلاه . وانشده ادام الباري علاه

هديـة المرء على قدره * والفضل ان يقبلها السيد
فالعين مع عظم مقدارها * تقبل ما يهدي لها المرود

وقول الآخر

ان تمام السرور للمرء ان * يأكل من طيبات غرس يده
وان يغني بشعره ويلي * خدمته من يحب من ولده

خاتمـة

(في مدح الشيء وذمه)

لا يخفى ان الكمال لله ذي الجلال وفي كل شيء ما يمدح ويذم لان المصلحة في ابتداء امر الدنيا الى انقضاء مدتها امتزاج الخير بالشر والضار بالنافع والمكروه بالمحبوب ولو كان الشر صرفاً هلك الخلق ولو كان الخير محضاً سقطت المحنة وتقطعت اسباب الفكره ومتى بطل التخيير وذهب التمييز لم يكن صبر على مكروه ولا شكر على محبوب ولا تعامل في بيان ولا تنافس في درجة كما افاده بعضهم . قال ابو عثمان الجاحظ : العربي يعاف الشيء

ويهجو به غيره فان ابتلي به نخر به ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ماهجى به غيره فافهم هذا فان الناس يغلطون على العرب ويزعمون انهم يمدحون بالشيء الذي يهجون به وهذا باطل وليس شيء الا وله وجهان فاذا مدحوا ذكروا احسن الوجهين واذا ذموا ذكروا اقبح الوجهين . قال ابن رشيق اكثر ما تجري هذه المادح والمذام على جهة المنافقة لا على جهة المناصفة ومن باب المسامحة لا من باب المشاحة والا فالشيء لا يوافق ضده فيكون الحسن قبيحاً في حالة واحدة والمدح ذماً لمعنى واحد لكن لكل شيء كما ذكر الجاحظ مساو ومحاسن انتهى . وقد تفنن البلغاء في ذلك فابرزوا المعاني الدقيقة في الالفاظ الرقيقة مما يدل على الذوق السليم والطبع المستقيم ويسمى عند اهل البديع نوع المغايرة والتغاير وسماه بعضهم بالتلطف قالوا هو ان يتلطف الناظم او الناثر في التوصل الى مدح مذموم او ذم ممدوح سواء كان هو الذي ذمه او مدحه من قبل نفسه او غيره وقد اشتملت هذه المسامرة فيه على فصول جمة وانواع مهمة ومن ذلك ما فعل عمرو بن الاهتم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد استشهده الزبرقان بن بدر على ماادعاه من الشرف في قومه قال عمرو اجل يا رسول الله انه مانع حوزته مطاع في انديته شديد العارضة فقال الزبرقان : اما والله لقد علم اكثر مما قال ولكن حسدني شرفي فقال عمرو اما وقد قال ما قال فوالله ما علمته الا ضيق العطن زمن المرؤة لئيم الخال حديث الغنى فرأى الكراهة في عين رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اختلف قوله فقال يا رسول الله رضيت فقلت احسن ما علمت وغضبت فقلت اقبح ما علمت وما كذبت في الاولى ولقد صدقت في الثانية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكمة ويروى ان عيسى عليه السلام لم يعب شيئاً قط فمر يوماً بكلب ميت فقال اصحابه ما انتن ريحه فقال عيسى عليه السلام ما احسن بياض اسنانه وقالت للحسين بن منذر

امرأة كيف سدت وانت ذميم بخيل فقال لاني سديد الرأي شديد الاقدام . وقال مسلمة بن عبد الملك لاخيه هشام كيف تطمع في الخلافة وانت بخيل وانت جبان فقال لاني حليم عفيف فسلم لعائبه ما ادعاه من مساويه وذكر من محاسنه ما لم ينازع فيه . صعد خالد بن عبد الله القسري منبر مكة يوم الجمعة وهو امير للوليد بن عبد الملك بن مروان فاثنى على الحجاج خيرا فلما كانت الجمعة الثانية وقد مات الوليد ورد عليه كتاب سليمان يامره بشتم الحجاج وذكر عيوبه واظهار البراءة منه فصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال ان ابليس كان يظهر من طاعة الله عز وجل ما كانت الملائكة ترى له به عليهم فضلا وكان الله قد علم من غشه ما خفي عن الملائكة فلما اراد الله فضيحته ابتلاه بالسجود لآدم فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم فلعنوه وان الحجاج كان يظهر من طاعة امير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلا وكان الله قد اطلع امير المؤمنين من غله وغشه على ما خفي عنا فلما اراد فضيحته اجرى ذلك على يد امير المومنين فالعنوه لعنه الله ثم نزل . ومر غيلان ابن خراشة الضبي مع عبد الله بن عامر بنهر ام عبدالله الذي شق البصرة ويعرف بنهر عامر فقال عبد الله ما اصلح هذا النهر لاهل هذا المصر فقال غيلان اجل والله ايها الامير يتعلم العوم فيه صبيانهم ويكون لسقائهم ولسيل مياههم ويأتيهم بميرتهم فلما عزل عبد الله وولي زياد وكان مولعاً برفع آثار عبد الله واراد طم هذا النهر فلم يمكنه لفرط منافع الناس له فركب يوماً ومعه غيلان على شط ذلك النهر فقال له زياد ما اضر هذا النهر لاهل هذا المصر فقال اجل والله ايها الامير تنز منه دورهم وتغرق فيه صبيانهم ويكثر لاجله بعوضهم فعجب الناس من تصرفه وكان العباس بن علي عم المنصور ياخذ الكاس بيده ثم يقول اما المال فتبلعين واما المروة فتخلعين واما الدين فتفسدين ويسكت ساعة ثم يقول

اما النفس فتسمحين واما الهم فتطردين افتراك عني تفلتين ثم يشربها
وشكا ابو العيناء حاله الى عبد الله بن سليمان فقال اليس قد كتبنا
لك الى ابراهيم بن الدبر قال كتبتَ الى رجل قد حصر من همته طول
الفقر وذل الاسر ومعاناة محن الدهر فاخفقت في طلبتي قال انت اخترته
قال وما علي اعز الله الامير في ذلك قد اختار موسى قومه سبعين
رجلا وما كان منهم رشيد واختار رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن
ابي سرح كاتباً فرجع الى المشركين مرتداً واختار علي رضي الله عنه
ابا موسى حكماً فحكم عليه ونقل ابن معصوم عن الشريف المرتضى
قال حكي ان ابا النظام جاء به وهو حدث الى الخليل بن احمد ليعلمه
فقال له الخليل يوماً يمتحنه وفي يده قدح زجاج يا بني صف لي هذه
الزجاجة فقال بمدح ام بذم فقال بمدح قال نعم تريك القذى ولا تقبل
الاذى ولا تستر ماورى قال فذمها قال سريع كسرها بطي جبرها
قال فصف هذه النخلة واوما الى نخلة في داره قال بمدح ام بذم قال بمدح
قال هي حلو مجتناها باسق منتهاها ناضر اعلاها قال فذمها قال هي صعبة المرتقى
بعيدة المجتنى محفوفة بالاذى فقال الخليل يا بني نحن الى التعلم منك
احوج قال السيد المرتضى وهذه بلاغة من النظام حسنة لان البلاغة
هي وصف الشي ذما او مدحاً باقصى ما يقال فيه انتهى وقد ذم الامام
علي كرم الله وجهه الدنيا كغيره فقال ما اصف من دار اولها عناء
واخرها فناء في حلالها حساب وفي حرامها عقاب من استغنى فيها فتن
ومن افتقر فيها حزن ومن ساعاها فاتته ومن قعد عنها واتته ومن ابصر بها
بصرته ومن ابصر اليها ابصرته اعمته . وقال المامون لو نطقت الدنيا ما وصفت
نفسها باحسن من قول ابي نواس

وما الناس الا هالك وابن هالك * وذو نسب في الهالكين عريق
اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو في ثياب صديق

ومدحها الامام على رضى الله عنه وقد سمع رجلا يذمها فقال ايها الذام للدنيا المغتر بغرورها ثم تذمها انت المتجرم عليها ام هي المتجرمة عليك متى استهوتك ام متى غرتك ابمصارع آبائك من البلا ابمضاجع امهاتك تحت الثرى كم عللت ولديك وكم مرضت والديك تبغي لهم الشفاء وتستوصف لهم الاطباء لم ينفع احدهم اشفاقك ولم تسعف عنه بطلبتك ولم تدفع عنهم بقوتك قد مثلت لك بهم الدنيا نفسك و بمصرعهم مصرعك ان الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عاقبة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها ودار موعظة لمن اتعظ بها مسجد احباء الله ومصلى ملائكة الله ومهبط وحي الله ومتجر اولياء الله اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها و نادت بفراقها ونعت نفسها واهلها فمثلت لهم ببلائها البلا وشوقتهم بسرورها الى السرور راحت بعافية وابتكرت بفجيعة ترغيباً وترهيباً وتخويفاً وتحذيراً فذمها رجال غداة الندامه وحمدها اخرون يوم القيمة ذكرتهم الدنيا فذكروا وحدثتهم فصدقوا ووعظتهم فاتعظوا انتهى

وقد نظم ابن ابي الاصبع معاني هذه الخطبة وذكره ابن حجة قال ابن معصوم ولعبد الله بن المعتز رسالة يمدح فيها الدنيا حذا فيها حذو هذه الخطبة واين الثريا من الثرى ومطلع سهيل من مواقع السيل ثم ذكر شيئاً منها والارض تفاخر السما بما ذكر وللامام المبجل احمد ابن حنبل

قنعت من الدنيا بلقمة بائس * ولبس عباء لا اريد سواها
لاني رايت الدهر ليس بدائم * ودهري وعمري فانيان كلاها

وكان رجاء اذا كلمه من لا يسمعه قال له ارفع صوتك فان باذني بعض ما بروحك وتنسب هذه النادرة الى الناصر الاطروش صاحب طبرستان

وكان من ذكاء القلب وجودة الحس بحيث يفطن بكل ما يكتب بالاصبع على يده فيكتفي بذلك عن السماع فيجيب عنه ومدح ظريف ابن سوادة عمرو بن هداب وكان ابرص فلما انتهى الى قوله

ابرص فياض اليدين اكلف * والبرص اندى باللهى واعرف

صاح به الناس وقالوا قطع الله لسانك فقال عمرو مه البرص من مفاخر العرب اما سمعتم قول ابن حبناء

لاتحسبين بياضي فيّ منقصة * ان اللهاميم في اقرابها بلق

او ما سمعتم قول ابن المشتهر

ايشتمني زيد بان كنت ابرصا * وكل كريم لا ابا لك ابرص

ولما شاع البرص في بلعاء ابن قيس قيل له ما هذا يابلعاء قال سيف الله جلاه وانظر قول اهل المعاني في مجدّر كسلحة نقرتها الديكة وقول ابن المعتز فيه ونسبه بعضهم لغيره في مغنٍ جدر

واهيف جدر لما استوى فزاده حسناً فزالت هموم

كانما غنا لشمس الضحى * فنقطته طرباً بالنجوم

وقد نظمت المعنى الاول بزيادة فقلت

ومجدر كسلحة * قد نقرتها الديكة

اوارقم في شكله * منقط كالسمكة

وقد كان ابن الرومي ممن يخالف الناس ويعكس القياس فيذم الحسن ويمدح القبيح وهو من غرائب الوجود في ذلك هجا الورد لانه كان يزكم من رائحته فقال

وقائل لم هجوت الورد قلت له من شومه عند اقياه ومن سخطه

كانه سرم بغل حين اخرجه * عند البراز و باقي الروث في وسطه

واين هذا التشبيه القبيح من قول الاخر المليح

كانه وجنة الحبيب وقد * نقطها عاشق بدينار

وقد قال فيه بعضهم

للورد عندى محل * لانه لا يمل
كل الرياحين جند * وهو الامير الاجل

ووصف البحتري يوم الفراق بالقصر وقد اجمع الناس على طوله فقال

ولقد تأملت الفراق فلم اجد * يوم الفراق على امرء بطويل
قصرت مسافته على متزود * منه لوهن صبابة وغليل

كذا قاله اهل البديع ثم رايت في الاغاني في الجزء الثاني في اخبار ابن مياده ما نصه : صوت اى من شعره

فلا انسى ماالاشياء لا انس قولها * وادمعها يذرين حشو المكاحل
تمتع بهذا اليوم القصير فانه * رهين بايام الدهورالاطاول

انتهى فكأن البحتري اخذه من هذا ثم رأيت في عنوان المرقصات والمطربات نسبة هذا البيتين الاخيرين للرماح بن ازد وهو من المخضرمين ثم رايتهما في الحماسة منسوبين لابن مياده قال الصفدي والحريري انما فاق على من سواه بما اتى به في مقاماته من مدح الشيء وذمه كما فعل في المقامة الدينارية والتي فاضل فيها بين كتاب الانشا والحساب والتي ذكر فيها البكر والثيب والزواج والعزبة وغير ذلك وهذا هو البلاغة والقدرة على التلعب في الكلام وصحة التخيل والذوق انتهى اقول ومم ينظم في سلك هذا النوع تخاصم ابي الاسود الدئلي مع زوجته عند معاوية وقد ذكرها الشريشي في شرح المقامات قال واظن ان الحريري صنع تخاصم ابي زيد مع زوجته على ذلك اه وكذلك مجادلة النعمان بن المنذر مع كسرى في ذم العرب وهي شهيرة وكذلك مفاضلة الغني الشاكر والفقير الصابر وقد مدح ابو عثمان الجاحظ انواع العلوم وذمها باعيانها معربا عن قدرته على الكلام وبعد شأوه في البلاغة وللحافظ الذهبي رسالة في زغل العلوم وفي الخاطر جمع رسالة فيما قيل في الكتب من ذلك وغيره بلغ الله عنه الامل قال الصفدي

وقد وضع بعضهم كتابا في المفاضلة بين الورد والنرجس لان الشعراء اولعوا بذلك فاطالوا واطابوا والمفاضلة بينهما ممكنة كما صنف الفضلاء مفاخرة السيف والقلم ومفاخرة الدرهم والدينار ومفاخرة البخل والكرم ومفاخرة مصر والشام ومفاخرة الشرق والغرب ومفاخرة العرب والعجم ومفاخرة النظم والنثر ومفاخرة الجواري والمردان اذ كل ذلك يمكن فيه الاتيان بالحجة للجانبين واما مفاخرة المسك والرماد فما للعقل في ذلك مجال وما عسى البليغ ان يقول في الرماد اذا فاخر المسك . وللجاحظ في ذلك رسالة بديعة انتهى . قال في كشف الظنون المفاخرة بين دمشق والقاهرة للسخاوى وللقاضي شمس الدين محمد بن احمد بساطي المتوفي سنة ٨٤٣ مفاخرة السيف والرمح لعلاء الدين علي بن محمد السعدى المتوفي سنة ٧١٧ مفاخرة السيف والقلم لابي حفص احمد بن محمد بن احمد الكاتب الاندلسي وكان حيا بعد سنة ٤٢٠ وهو اول من سبق اليه القول بالاندلس . مفاخرة العلم والسيف والدينار لعلي ابن هبة الله بن ماكولا . مفاخرة الحرمين ومفاضلة المحلين للامام نورالدين علي بن يوسف الزرندى الانصارى مؤلف مختصر مناظرة الشمس والقمر لخاجه مسعود القمي وله مناظرة السيف والقلم . مناظرة اهل السنة والروافض لابي الحسن يوسف الطفيلي مناظرات في الاصول مناظرات الانسان انتهى وذكر ايضا مقامات السيوطي في مفاخرة الرياحين والازهار وانواع الطيب وبعض الفواكه وانواع النقل وانواع الجواهر وقد رايتها وكذا مفاخرة الحرمين المذكورة في الكشف في نزهة الجليس وفيها ايضا المقامة المسماة مذاكرة ذوى الراحة والعنا في المفاخرة بين الفقر والغنى للسيد محمد بن علي بن حيدر الموسوى وقال في الكشف زهر الجنان في مناظرة القنديل والشمعدان رسالة بليغة من انشاء البارع تاج الدين عبد الباقي ابن عبد الحميد السخاوي ذكرها النويرى بتمامها انتهى ورايت مفاخرة السيف

والقلم لجمال الدين بن نباته في خزانة الادب لابن حجة في نوع المغايره وكذا للشيخ ابن الوردى مفاخرة صغيرة بينهما وكذا مفاخرة النرجس والورد المسماة بالجوهر الفرد لابى الحسن علي بن محمد الماردينى خدم بها قاضي القضاة شهاب الدين احمد بن كشك وقد ذكرها في الكشف ايضاً وهي لطيفة ذكرها في نفحة اليمن وكذا ذكر فيهامناظرةالمنجم والطبيب المسماة منية اللبيب للعلامة الاديب محمد مؤمن ابن الحاج محمد قاسم الجزائرى وقد رايت ايضاً مفاخرة الشمس والقمر ومفاخرة الاعمى والبصير وما عرفت مؤلفهما واول الاولى الحمد لله الذي اشرق شموس الاداب سماء المعاني والبيان الخ واول الثانيه الحمد لله الذي نور البصائر بقدرته وفتق عن زهر الاداب بحكمته وقد رايت ايضاً مفاخرةالسفر والاقامة وهى كاسمها ابهى مقامه لأديب الشام العلامة الهمام الشيخ محمد بن محمد المبارك الجزائرى وبلغنى انه طبع بالشام مفاخرةالارض والسماء وكذامفاخرة الماء والهواء . ومما الف في هذا النوع كتاب لابن رشيق وكتاب المحاسن والمساوى للشيخ ابراهيم بن محمد البيهقي وكتاب اللطائف والظرائف للثعالبي وكذا كتاب اليواقيت في المواقيت له ايضاً وكتاب المحاسن والاضداد لابى عثمان الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥ كما في الكشف ويقال ان للجاحظ مثالب العرب ولم اره في ترجمته انما ذكر في الاغاني كتاب المثالث لغيره ولا يستبعد ذلك ممن يفاخر بين المسك والرماد والله يقول ختامه مسك والله اعلم * يقول العبد الاقل هذا جهد المقل وزهد المخل مع توزيع القلب في كل محل كما قيل

مشتت القلب في شام وفي يمن * وفي الحجاز وفي اطراف بغداد

وليعلم اني لم اصرح باسماء اصحاب الاشعار في هذه المسامرة الا اهل العصر ليحصل التميز والتنويه باهل المصر والا عبد الله بن المعتز الخليفة العباسي طود الفضل الراسي فانه مؤسس البديع وهذه الصناعه وامـام

الفن وشيخ الجماعه وكلام الملوك ملوك الكلام وقال المبرد لا يكمل ظرف الرجل حتى يقرأ بحرف ابي عمرو ويتفقه على مذهب الشافعي ويروي شعر ابن المعتز واني اقول كما قال الشيخ مرعي الحنبلي

لئن قلد الناس الأئمة انني * لفي مذهب الحبر بن حنبل راغب
اقلد فتواه واعشق قوله * وللناس فيما يعشقون مذاهب

قال ذلك بفمه ورقمه بقلمه العبد الحقير ابو بكر بن محمد عارف خوقير الكتبي بمكة في باب السلام عفى عنه الملك السلام وكان تحرير ذلك في غاية جمادى الآخرة من عام الف وثلاثمائة وستة عشر من هجرة خير البشر صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا والحمد لله رب العالمين آمين



هذه محاكمة الفاضل الاديب العلامة الشيخ عبد الحفيظ القاري

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن خلق الزمان بالصنع البديع . وقسمه الى صيف وخريف وشتاء وربيع . واودع في كل فصل حكمه . وجعل في اختلافها صلاحاً للزروع ورحمه . وللنوع الانساني صحة ونعمه . والصلاة والسلام على من اوضح معاني الاختلاف . ومدح كل فصل بما فيه من المنافع وبين الخلاف وعلى آله الذين اشرقت معارفهم على الخلق . وبينوا مناهج الهداية الى الى معرفة الحق . واصحابه الذين نشروا الايمان بتوسيع الممالك . ونشروا درر العلوم في تلك الامم وامنوا المسالك . والتابعين لافعالهم المحررين بتحقيق ما هنالك . وسلم تسليماً كثيراً الى يوم الدين . والحمد رب العالمين (اما بعد) فان محرر هذه المقامة الفريده . والمفاخرة التي هي بين اترابها وحيده . هو الفاضل الذي شهد الزمان بفضله . العالم الذي اقرت الاقران بعلمه ونبله . الذي ان انشا خضعت لبلاغته الاقلام . او نظم كان عقداً في نحر البحتري وابي تمام . وخجل من رقة نظمه القاضي الفاضل والنظام واقر بانسجام لفظه التلعفري وابن بسام . حسن ظنه بالعاجز . واني ممن يبارز . وطلب مني فصل الحكومة بين الشتاء والصيف . وهذا امر خطر كالوقوف على صراط احد من السيف . ولكن امتثال امره الكريم اوجب حمل العباء الجسيم . وبينما افكر في امر خطير . وتقديم وتأخير . اذ دخل الشتاء والصيف عليّ . ووقفا بالادب بين يدي . وقوف الخصمين الالدّين . او الاخوين المتباغضين . وكلٌّ لا ينظر الى خصمه الا شزرا . ويقول ما اوردت من بحر فضلى الا قطراً . وطلبا الحكم بينهما بالرفق .

كما اشار عليهما رب اللطافة والحذق · فقابلتهما بالتعظيم والاجلال ·
وقلت المحاكمة بينكما في الاستقبال · ولكن اسمعا هذه المقالة مني · وخذا
هذه النصيحة عني · كيف احكم لاحدكما على الاخر · ولكل منكما مفاخر
ومنافع للانسان ومآثر · انتما في الزمان كالعينين في الراس · وهل يرضى
بذهاب احدهما احد من الناس · وما اراكما للزمان الا كركبتي البعير ·
التي يتحرك بهما في البروك والمسير · ها انتما قد رضعتما در الغمام · ولم
تقدرا على الفطام عنه ايام · جاء البرد والمطر في ايام الشتاء المنيع ·
ونمت الاشجار وظهر النوار باعتدال هواء الربيع · ونضجت الفواكه بحرارة
الصيف وسمومه · وشرابها من حميمه ويحمومه · وتقلصت الثمار من يبس
هواء الخريف · وذوت الرياض وسقطت الاوراق من الريح العنيف واذا
كانت الفصول لا تعمل مقتضاها · بما اودعه فيها المدبر العلام وبراها ·
تغير هواء البلاد وما صحت لفساده الاجساد · وما طابت الفواكه
والمزروعات · وللحق سبحانـه في تنقل الفصول آيات واي آيات
فالبرد الشديد عند اهل البلاد الباردة فائدة واي فائدة · به تندفع
الافات عن الاشجار والارض · ويظهر من المزروعات كل شيء غض ·
ولولا تجمد الثلوج في الديار الرومية وما ضاهاهـا · ليبست اشجارهم
وزروعهم ولم تر بارضهم مياها · وعبروا على الثلج بالبركة النازله ·
والرحمة الشامله · حتى اوردوا فيه مثلا كافي · الشتاء الدافي كالصديق الجافي
والصيف عند اهل بلاد الحارة له منافع · اتفقت على حسنه اهل العقول
والطبائع · به تتم صحة اهل تلك الجهات · وترتفع بشدة الحرارة كثرة
الرطوبات · وينضج بها شجر النخل وجميع الثمار · التي لا تنبت الا في تلك
الديار · وقد قيل الشتاء والصيف كفتا ميزان · اذا فسد احدهما فسد
الآخر بلا نكران · فكيف يطلب احدكما الفضل على اخيه الذي يوازنه

ويضاهيه · وهو لا يقوم الا بمعاونته · ولا ينتصر الا بمساعدته ولا يفتخر الا بمحاسنه ولا ينفق الا من معادنه * فلما سمعا مني هذه المقاله · وظهر حسنها لديهما ظهور الغزاله · رجعا عن المفاخرة الى الصلح وتركا بينهما العناد والشح فقلت لهما الصلح خير ولا عار فيه على احدكما ولا ضير فقلت في الحال مقسماً ولخاطرها مطيبا ومتمما

تفاخر الصيف والشتاء * وصار كلٌّ له هواء
فللشتاء خير وبرّ * والبذر والزرع والعطاء
وللصيف الزهور فخر * والانس والنقل والهناء
فافترقا عن تراض وعن * رضين عفو له صفاء

فلما سمعا هذه الابيات قالا ما فات مات وانشأت هذه الابيات مادحاً المؤلف سلمه الله من الآفات

ايا من رقى اوج العلا بكماله * وفاح لى الجوزاء عطر مقاله
واخفى نجوماً قد جعلن لنظمه * وقلن بلى ما الزهر تزهو كقاله
هو العالم المفضال من حسنت له * خلائق لطف جمّعت بكماله
له الراية البيضاء في كل محفل * وفي العلم والتعليم جلّ جماله
حوى كل علم فهو فيه مقدم * ومن رام يحكي فهو كالما وآله
بحزم وعزم نال مجدا ورفعة * وللعجز ان قلنا نجي بمثاله
فلله ما ابدى مفاخرة الشتا * لصيف وهل من يقتدى بفعاله
يقدم برهان الشتاء بحكمة * ويعقبه الصيف كالمتواله
فيظهر مغلوبا ويرجع غالبا * بتحبير اقوال بدت بجداله
فمن كابن خوقير ابو بكر من غدا * اماماً لتأليف وذا من نواله
يقر بفضل كل من شام علمه * ولولا العدا ضاعت بقايا خصاله
حميد السجايا والمزايا طبيعة * لذا كل من والاه يدرى بحاله

انيس خليق ليس بالنفس معجبا * صدوق وفيّ في ابتدا ومآله

والحمد لله على التمام والصلاة والسلام على افضل الانام نمق
هذا الصلح والتقريز العبد العاجز الحقير راجي رحمة ربه
البارى عبد الحفيظ بن عثمان القارى غفر الله ذنبه
وستر عيبه وفرج كربه امين

صورة تقريظ الاديب الأمـام العلامة الهمام

الشيخ عبد الغني اللبدي النابلسي

الحمد لله الذي اطلع شمس الادب من ديار تهامه فكان ذلك اكبر آية على فضل اهلها واعظم علامه والصلوة والسلام على سيدنا محمد الذي كانت تظله الغمامه وعلى اله واصحابه الحائزين قصبات السبق في مضمار الاستقامه اما بعد فقد منّ الله تعالى عليّ في هذا العام السادس عشر بعد الثلاثمائة والالف من هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام بزيارة بيت الله الحرام وشهود المشاعر العظام فاجتمعت بصاحبنا الاديب والعلامة الاريب ذى الراى الصائب والفهم الثاقب الفاضل النحرير الشيخ ابي بكر ابن محمد خوقير القاطن في ربوع هذا البلد الامين والمعدود من اعيان ادباء وفضلاء ساكنيها العرانين فاطلعني حفظه الله تعالى على هذا التأليف النفيس الذي اذعن لفضله المرؤس والرئيس في المفاخرة بين الشتاء والصيف بكلام لا شطط فيه ولا حيف فقد سلك فيه مسلكا وسطا مع اني لم اجد له فيه فرطا بل هو مؤلف بديع مرصع بالجوهر النفيس اتم ترصيع فمن تأمله وجد فضله على جانب عظيم من الترجيح غنيا عن الاطناب والاطراء في مقام المديح فلا يزينه مدح امثالى ولا يشينه قول قالى وبالجملة فهو كشادن حارت في اوصافه العشاق واشتغلت بالتطلع الى شمائله احداق

الآماق ولا سيا وقد تحلى جيده بعقد الدر الذي نظمه المحكم الهمام العلامة اللوذعي الالمعي المقدام ذو القدم الراسخ في جميع العلوم والمقام الشامخ في معرفة المنطوق والمفهوم ذى الآداب الشهيرة والفضل السارى الشيخ عبد الحفيظ عثمان القاري متعنى الله بحياتهما واعاد عليَّ من بركاتهما وارجو ان يمنحاني بصالح دعواتهما وان يتحفاني بجميل توجهاتهما فاني لذلك فقير وكل منهما بفعل الخير جدير قاله بفمه ورقمه بقلمه الفقير

اليه تعالى عبد الغنى اللبدي

النابلسي ما لحنبلي عفى عنه

صورة تقريظ الفاضل الاديب الكامل الاريب الافندي محمد الباز المكي

حمدا لمن انزل لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف وجعل لكل منهما سرابيل تقينا الحر والبرد مع الاطعام من جوع والامن من الخوف وصلاة وسلاماً على من اوتي جوامع الكلم واشتات الفضائل وعلى اله واصحابه وتابعيهم السالك كل منهم منهاج ادابه ولا شبهة فيهم لقائل وبعد فلما سرحت الطرف في محاسن روض هذه المقامة وارتويت بريق رائق معانيها الفيتها لكل نديم مدامة لا بل هي السحر الا انه الحلال والماء الا انه الزلال تشهد لمحررها الفخر ابي بكر خوقير بالفخر وتذعن بان ما اتى به فيها هو دمية القصر ويتيمة العصر مابين مواصيل رائقه ومقاطيع فائقة وامثال تضرب للناس للاستئناس وروايات تطرب الأسماع لرقتها بلا التباس فاخر فيها بواسع درايته بين الشتاء والصيف وساعد كلاً منهما على صاحبه الا حيث بالدرقة والسيف ولما تلاقيا خصمين بغى بعضهما

على بعض وتطاولت اليهما اعناق الناظرين من الطول والعرض وقعا بحضرة المولى الجليل ذى الفضل السارى العالم العلامة ذى الفخامة والشهامة استاذنا الشيخ عبد الحفيظ عثمان القارى وارتضياه لها وعليهما حكما وجعله كل منهما لراية نصره مقدما سلك اعزه الله في الصلح بينهما جادة العدل والانصاف وحقق لكل منهما الفضل على صاحبه بما اوجب له الاعتراف بمعان سيارة حدثت عنها القوافي سلاسة ومتانه والفاظ كحب الغمام لا يشك العقد المنظوم في انها فاقت جمانه ومنثور كانه الدر المنثور ومنظوم هو احرى بقلائد النحور فلله درهما من جليلين مؤدبين ولله نحرها من نحيمين مهذبين لا زالت شموس الاداب بمطالع سعادتهما ساطعة وشموس شوارد المعاني لعزة قوة بلاغتهما خاضعه وزادهما الله بسطة في العلم والجسم واحيا بماء حياتهما من ربيع الاداب ما اندرس من رسم

كتبه بقلمه الفقير الى مولاه ذي الاعزاز

محمد الباز

صورة تقريظ الحكيم محمد اجمل خان بهادر الدهلوى طبيب الذات النوابية الرامپورية سلمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم)

سبحان من جعل الفصول شتاء ومصيفا وربيعا وخريفا واودع في كل منها الآثار العجيبة والخواص الغريبة والصلوة والسلام على رسوله الذي هبت به نسايم الروح والريحان وزال بزلال كلامه حر الفرق والعصيان واصحابه الذينهم كالشموس في سموات العلى والبدور الكاملة في الدجى اما بعد فقد فزت برسالة في غاية الفصاحة ونهاية الرجاحة والملاحة ومقالة في نهاية البلاغة محكمة الصنعة مونقة الصياغة مرتع لافكار الادباء ومطمح

لانظار الفصحاء تراها بكرا تتغنج في حلل المجاز وتتمايل تيها على شوارع الحقيقة والمجاز تنجذب القلوب الى حسنها وجمالها وتندهش الابصار من غنجها ودلالها كلما افتكرت في محاسنها ازددت بها شغفاً ومتى اقتفيت اثارها حصلت منها طرفا (نظم)

هي روضة لو شمتها * لجنيت من ثمراتها
وهي التي تبقى الاديب يسرّ من نفحاتها

وتلك الرسالة مؤلفها الفاضل اللبيب والعالم الفاضل الاديب النبيل النحرير الشيخ ابو بكر بن محمد خوقير وضع فيها بدائع المعاني وصنائع البيان لا كالتي لا تبين ولا تبان فيا لله من ريح هبت من ديار تهامه وظهور نجم تلألأ بعد استتاره تحت الغمامه الا ايها الطالع الصالح تجد فيها الحر والبرد الكالح متنازعين كالمتعاديين اذا نظرت الى حجج الاول وجدتها رفيعة وان لاحظت براهين الثاني الفيتها منيعه فانتهى امرهما الى المصنف الفاضل وركنت قضيتهما الى هذا القاضي العادل فراعى الجانبين واتى بما ليس فيه رين ولا شين والحق ان فيها من نوادر الادب ما تجود بها ادباء العرب ان رايتها ازددت بها خبرة وبصيره لانها طلعت كالدراري المنيره وهي تضاهي الكتب الشهيرة في هذا الباب بل ورفعت عن سرائرها الحجاب هذا والحمد لله خالق الخلق ومنزل الكتاب وممتحن الاعمال يوم الحساب

الحكيم محمد اجمل بن الحكيم محمود خان الدهلوى
نقل من خطه الشريف حرفاً حرفاً

صورة تقريظ علامة المعقول وامام المنقول مولانا الشيخ محمد طيب المكي رئيس المدرسة العالية الرامبورية لا زال في رتبة عليه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي وسم المواسم بحلى الثغور البواسم وزين الزمان بهذه الاربعة الاركان فماست في غلايل وتاهت بتلك الحلى والشمايل تسمى فصولا وهي موصوله وتبدو مدبجة وهي من الدرن مغسوله وليس هذا باعجب من اختلافها في العدد بحسب اختلاف الافاق والبلد ففي الافاق المائلة هي للزمان في عدد العناصر للابدان وفي الافق المستوي تحكي الأمزجة الثمان هذا مع ما لها من جد وهزل · ورخاوة وأزل · وغضاضة ونضج وبضاضة وغنج فانما هي راحة ارواح وساحة افراح وسكر وسكر ومزهر وسمر ذلك تقدير العزيز العليم الحكيم القادر العظيم الذي اعطى كل شيء خلقه وافاض على المحتاق رزقه وحقه فلذا استأثر كل بجماله وبلغ مبلغ حسنه وكماله فكل في نفسه فاضل ولا يقدم العاقل على ان يفاضل واما اذا اضفتها الى طبايع الناس وما يترتب عليها من وحشة وايناس فللناس فيها يعشقون مذاهب ولا يزالون مختلفين الامن رحم ربك اللهم الا ان تذوق من حزب هو حزبك وكل حزب بما لديهم فرحون فاذن النظر في الصيف والشتاء اذا حقق وحدق يرجع الا ثلاثة انحاء نظر في انفسهما فهما كاملان ونظر في منفعتهما الخلقيه فهما نافعان ونظر في منفعتهما بالاضافة الى الأمزجة فهما ضاران ونافعان فلذا توقف المصنف والحكم وانصف كل منهما في القضية وما احتكم فلله در المصنف حيث وفق للعدل في مثل هذا الزمان وافاض عليهما من نائل فضله الامان .

وهدا يدل على سلامة سليقته وعرارة مادته وايم الله انه للعالم العلم الدي يبري السيف اذا علم بالقلم ويتسوع من المداد اللثالي ويريك الشمس في جنح الليالي لا اقول احيا الادب ونشره واىما اقول خلقه فقدره وصوّره وشق سمعه وبصره اليس الادب كان صامتاً حتى انطقه وكدراً حتى روّقه وكان دا متربة فصيّره دا مرتبة قوّم زيغه واعاد هشيمه واضاف اليه خلقا جديدا فقيل لاعدائه كونوا حجارة او حديدا فستعودون الى دار البوار وتخلدون من الحسد في النار وهدا الكتاب لا يتعاطاه سوا الاكياس ولا يتدارس غيره جميع الناس فهذا الكتاب للعلماء تذكره وللحذاق تبصره وللمتعلم منهاج وللمبتدأ معراج وفي المجالس نديم وللضيوف تكريم فانما هو مسامرة الشيب ورحلة الشتاء والصيف. واعجوبة الدهر وسلافة العصر كيف لا ومصنفه ناصر السنة والكتاب كما انه مشيد اركان الآداب اليس انه لما رأى تقاعد كثير ممن ينحل عن نصرة مذهب الامام ابي عبد الله احمد بن حنبل قام ببسطه وتقوية ربطه والتنويه باسمه في كل نادي واشاعته في كل مصر ووادي فهو الدي اذا قرر انقادت له الشموس ومتى حرر تطامنت لهيبته المحابر والطروس

حبر امام العصر كيف نبيه * بحر دخائره لكل نبيه
بل عم من تهذيبه حسانه * فتراه يعطي النصح من يؤديه
كالشمس تلحق كل شيء نورها * والدوح يعطي الفضل من يرميه
روض العلوم وزهره خلاقه * بحر ولكن كل عذب فيه
ولقد تسعت الزمان واهله * وعجمته مصغيا بلا تمويه
وفحصت فيه كل شهم كامل * فرايت منه بعض ما يحكيه
لكن ابو بكر صديق صادق * صاف السريرة ناصح لاخيه
قد قام للاسلام قومة ناصح * واهال در الفضل بين ذويه

هذا اذا ركب اليراع بنانه * جرت السوابق خلفه تبغيه

واذا تكلم خاطبا ملك الورى * حتى بداه يقوم بالتنويه

ادب ودين في متانة رايه * وفكاهة وظرافة في فيه

ما فيه عيب غير ان زمانه * زمن تعرى عن حلى التنبيه

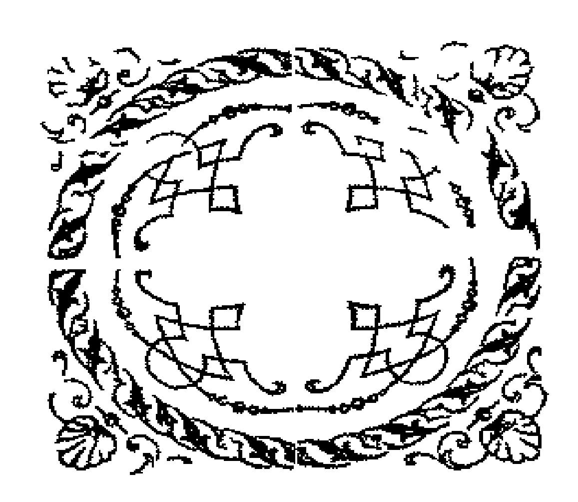
لكن ابو بكر معين كماله * يصفو بذهني من التمويه

لا زال مصطلعا بكل جليلة * في ظل عز سابغ الترفيه

هذا التقريظ لاديب محمد طيب بن

المرحوم محمد صالح كاتب

المكي



كتاب سلوة الحريف * بمناظرة الربيع والخريف
لفريد الزمان الشيخ الاجل قوام الادب ابي
عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مقسم القسم * وبارىء النسم * ومديم النعم * ومزيل النقم حمداً يوازي بواطن نعمه * ويجازى ظواهر كرمه * وان كان كرمه لا يوازى * ونعمه لا تجازى * باقصى المحامد * وابعد جهد الجاهد * وصلى الله على رسوله محمد وعلى الطاهرين من اسرته . والطيبين من عترته *

خرجت يوما وانا في خدمة قوام الملك ونظام الدين ابي يعلى احمد ابن طاهر اطال الله في المعالي لتهذيب المعاني بقاءه * وحرس في اقتفاء المكارم عن المكاره فناءه * وحاط على الافاضل بانداد الفواضل نعماءه وعطف على العلماء بحفظ ايامه وزمانه * وجمل الدنيا بعزة تمكينه فيها ورفعة مكانه * متنزها ومتفرجا من الحفلة بالوحدة متسليا * ومتشفيا ببرد النسيم عن حرقة كنت بها متصليا * مترنما بلواعجي اطفيء لظى صدرى لما بندى دموع سجم . على اني احب المكان القفر من اجل انني به اتغنى باسميا غير معجم * فاطلعت بي عيني لتتخلص مما بها على عين تموج بماء سلسال زلال كانها انكدرت من سـ ـسل سيف زلازل واذا قريب منه روضة دعتني واشر ت بي على عين اخرى وهي تنفجر من محاجر الاحجار

هذ الانفجار كانها سيف الصبح سل من غمد الظلام يتهدد الشهب بورود النهار * او كانها النضناض ينساب على الرضراض في الانهار * فقعدت عليه وحدى بل بوجدى خاليا * وبالنظر فيه ساليا * اتأمل منه مكانا خاليا * واتنفس نفسا عاليا * وامني نفسي بلعل وعسى * لانه اذا امتلات نفس الكريم تنفسا * فلحقتني رفقة من اهل الادب * خرجوا للطرب * او لبعض الادب * وفيهم شاب كأن جملة الجمال منه خلقت . وتفاريقها عنه سرقت * وعلى جميع الخلائق فرقت * يتصرف بشمائله في القلوب * تصرف الهواء بالشمال والجنوب . له قد نخل في حشى النحل دقة وثغر حوى طيب الجنى

وعينان قال الله كونا فكانتا * فعولان بالالباب ما يفعل الخمر

وطرة كالغسق * على غرة الفلق . واصداغ ترقص على النار من وجنته * وتسلم عليها وتحرق العشاق دون الوصول الى كوثر فيه وجنته * فيا له من حسن شعر يغير من وجه المسك لونا * ورائحة وعزا وصونا * على وجه يخجل البدر ويرده الى محله من المحاق * ويشور الشمس ويردها في في المغرب دون الاشراق * فملكنا حسنه واحسانه * وسبانا وجهه ولسانه * ولحق بي بعض من يخدمني فاستدعينا بشيء من البوارد * على ذلك الماء البارد * الذي يتلألأ كاللآلي من موارد كالمبارد * وتجعده ايدي الصبا ويلطفه كالهواء وينقيه من كل اذى وهباء * ويتخلل تلك الرياض غدير كالمرآة المجلوة يطلع فيها السماء بنجومها * وكادت تخوض فيه زهرها بل غرقت بينها برسوبها وهجومها * وتجمشها عيون السحاب بسجومها * وقد اخضر شاربها كالز برجد الانضر * وافترت عن ثغر حصبائها كالدر الازهر * وكأن وجه الارض يغايظ السماء بغديرها ويراغمها بزرقته وصفائه * وزهر حصبائه * كما تباريها باخضرار نباتها وكما ان السماء تجاري الارض باغبرار سحابها المتقطر * كذلك

تباري السماء باخضرار نباتها المتفطر * وكما ان الارض تشاكل السماء
بازهارها وانوارها * كذلك السماء تماثلها بازهارها وانوارها *وكذلك
الارض

يضاحك الشمس منها كوكب شرق * مؤزر بعميم النبت مكتهل

والسماء تقول ان لي احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لله
ساجدين والارض تقرأ والنجم والشجر يسجدان فبينا نحن في مفاخرتهما
عبرا * وان لم تكن نظرا . ذ طلع علينا شيخ متر من ثياب الديباج
والخز * مفرق في كسى الحرير مبطنة بالقز * مديد القناه قصير الخطى .
يقومه الفرح والمرح كالسهم فيمضي ويقوسه السكر او الكبر فيتمطى . فحين
قرب منا ملأ الارواح خفة روح وظرفا * والانفاس ذكاء ونشرا وعرفا *
والقلوب ذكاء وبشرا وعرفا * والعيون جمالا وملاحة وبهجه . والمسامع
بيانا وفصاحة وبهجة . فقمنا واستقبلناه من طرف اليه * ودرنا حواليه *
بقلوب لهيبته خافقه * ونفوس على شيبته رافقه * فبرّنا وسرّنا * وحفنا
ورفنا * وخص كلاً منا بعزته و حسنه . وابهج جماعتنا بمليح لسنه وفصيح
لسانه . فاقبلنا عليه وتركنا الشاب الذي تملكنا حسنه واصبانا . واقتنصنا
ظرفه وصبانا . واذا للشيخ بهاء وابهه . والفكرة فيه موقظة للالباب
ومنبهه . ومجالسته موجبة عن الخمول ومنبهه . وله شعر ابيض مشرق
يخمل بياض البازي . ولون احمر ناصع يبخس حمرة الياقوت البهرماني
وعيناه تذكران حسن عيون النرجس الريان . وحاجباه يبصرانتا
هلال الفطر سرورا وحبورا او هلال رمضان . الآمر بالبر والايمان
واذا له ثغر يضحك من مدى الاقحوان . ولونه الدرى يهزأ بالمرجان
وانفه يشمخ تيها على الفتيان . ومحاسنه تضوء ببياض النعمه .
وتزهر بنور النعمه . وتلوح بطيب النعمه . فجمعت النعم انواعا

والوانا . واستكملت الطيبات ضروبا وافنانا . وله صدر فسيح الارجاء . يتسع لواردي الخوف والرجاء . فأقبل علينا بالوقار والسكينه . والبلاغة المكينه . وقال الآن اذ سكنتم الحيّ وتمكنتم . ففيم كنتم . فقلنا له اعجبنا هذا الماء الصافي عن الكدر . وهذا المكان الخالي عن القتر . فقال الشيخ هكذا يكون الخريف يصفو ماؤه . وتصفو نعماؤه . ويرق هواؤه . وتخف ارواحه . وترتاح بنعيمه المقيم قلوبه وارواحه . فانتدب الفتى الطري . الشاب الاريحي . الذي تقدم ذكره وقال في غضب وحرد يا خرف ابا الخريف تدل علينا وهو زمان امراضه مزمنه . وفصل جملته موهية موهنه . وحين طبعه حين وحي . ومزاجه موحش وبيّ . ووجهه عابس . وترابه يابس . وهواؤه كالح . وماؤه بطبخ حرارة الصيف اياه زعاق مالح . ولم انسيت فصل الربيع وفضله وسيماه ونشره . وطلاقته وبشره . اذا اقبل يتهلل ويتبسم . ويكاد من الحسن يتكلم . . طرى الاحشاء والحواشي . نديّ الغوادى والغواشي . لذيذ الابكار سجسج المواجر طيب الاصائل . فقال الشيخ بركون . وتودة وسكون . ما اسمك ايها الظريف الطلق الوجه واللسان واليد . الماضي المضيء كالسيف في الحد . والجد والحد . اللطيف في المنظر والمخبر والمطلع والمقطع فقال اسمي الربيع بن الطيب فما اسمك ايها الشيخ الكريم في اخلاقه واحلامه السيد الغافر بعفوه خطأ غلامه . المتجاوز عن ذلل كلامه . فانا كما قال السلامي

تبسطنا على الآثام لما * راينا العفو من ثمر الذنوب
ونحن اولاك نطلب من بعيد * لعزتنا وندرك من قريب

فقال يا حبذا وجهك المبارك . قد جل باريه وتبارك . اهلا بك وبقومك . ومرحبا بوقتك ويومك . اسمي الخريف بن المنعم فما فجرك

مني وانا عن نفسي ناضح . ببرهاني اللائح الواضح . فقال الربيع وانا كذلك فاعذرني وقد عرفت طبعي في تلونه وان كان مقبولا وحالي في تفننه وان كان لذيذا ممسورا فقال الخريف انت يا فتى معذور . بل مشكور .

فروحك الريح تخفي كل منتنة * ونارك النور تمحو كله الظلم

وانت من في وجهه شافع يمحو اساءاته وفي حسنه دافع نافع فهذا يزين كل مليح . وذاك بدفن كل قبيح .

وقبيح الصديق غير قبيح * ومليح العدو غير مليح

فلم تفضل الربيع على الخريف . يا ربيع الظريف . وقد عرف العالمون باسرهم واعترف العالمون ان الربيع في طبعه كما وصفت متلون قليل الوفاء . كثير الاخلاق في الجفاء . لا يوقف على طبائعه وهي كابي براقش ولا يوثق بسجاياه وهي كابي قلمون بينا ترى الشمس سافرة نقابها . وقد ارسلت سحابها . واوحلت طرق المارين وبلت ثيابها . وبينا ترى اوجه السماء في بكائه وانهلاله واستهلاله اذ عاد الى ضحكه وتهلله واستغرابه وبينا تراها وهي تقرب سحبها وتبعد . وتصوب رياحها وتصعد . وتبرق بتسحبها وترعد . اذا بدا لها واستبدلت بتلك الحالة ابدالها . ليس كالخريف ساكن الجاش وقور الطباع ثابت الشيم مطمئن الشمائل . يوقظ الناس للاستعداد للشتاء بالجنائب طوراً وطوراً بهبوب الشمائل . وينبههم حينا ببرده الخفيف الرفيق القارص بانامله وتارة بنسيمه اللطيف الرقيق اللاحظ بنواظره وهو في هذه الاحوال كلها يميرهم بريعه الوافي الوافر فهم يمتارون منه ويحتكرون . ويتوسعون في ما ينالون منه ويذخرون . ويقتنون فواكههم ويعصرون ويحتظرون .

قال الربيع

اما ما ذكرت من تلون طباع الربيع . وانه كل ساعة ياتي بخلق بديع . وطبع غريب وكيف ينكر التلون من طبائع مختلفة . وامزجة مركبة من عناصر غير مؤتلفه . وانما فعل ذلك لكي يحيي كل عنصر بمزاجه . ويهز كل طبع بما يقتضيه من حاله لا فتقاره اليه بالمناسبة واحتياجه . ولكي ترتاح الامزجة بالتجدد بعد الاخلاق وتنتعش العناصر عن البلى فهو يتدارك بفعله اللطيف . ما افسد الخريف . وذلك التلون حبيب الى النفوس لانه ركب من طبائعها ولذلك شبه الشاعر معشوقه به في فعله فقال

اما ترى اليوم ما احلى شمائله * صحو وغيم وابراق وارعاد
كانه انت يا من لست اذكره * وصل وهجر وتقريب وابعاد

وبعد فالنفس تمل والقلب يسأم الدائم والحمض اروح والجديد الذ .
واما ما ذكرت من سكون الخريف ووقاره فانما هو لبرده ويبسه والحي تكون حياته بالحرارة مع الرطوبة والميت يكون موته من البرودة مع اليبوسة فالربيع يحيي والخريف يبلي واما ما ذكرت انه يمير الناس المطاعم ويفيض عليهم المناعم . فان ذلك كله مما نتجته ايدى الربيع وقدمه تدبيره المصيب واورثه عمله النافع وولده كسبه المفيد وعلى الايام يظهر عمل المدبر المصلح . وبعد الاوقات يتبين تدبير العامل المفلح .

قال الخريف

اما ما ذكرت من الخريف وان طبعه بارد يابس كطبع الميت وان طبع الربيع حار رطب وهو طبع الحي فقد جهلت او نسيت واخطأت او خطيت فان الحرارة اوحى فتلا واعجل اهلاكا من البرودة والدليل عليه

حال المبرسمين بالقياس الى حال المفلوجين والكيفية الباردة اليابسة هي للارض التي منها خلقنا واليها المصير . وعليها قرارنا ومنها غذاونا وهي الملجأ والنصير . وهي طبع السوداء التي هي علة الآفات والثبات والحلم والوقار واصحابها من ذوي العلوم الشريفه . والصناعات اللطيفه . هذا ان سلمنا ان طبع الخريف بارد يابس واما ما قلت ان ما يبيرهم الخريف فمن صنع الربيع فكيف يكون ذلك والخريف وقت البذر والشتاء خليفته في تربيته ولذلك قال الشاعر

ان الشتاء على كلوحة وجهه * لهو المفيد طلاقة المصطاف

فما للربيع الا اخراجها مع الحشرات واظهارها مع الهوام فيبلي ابلاء حسنا مشفوعاً بسوء بلا . ويقترف فعلا واحدا ممزوجا بالف اذى . ومع ذلك فهو الذى يهيج الاخلاط الفاسدة في ابدان الناس ويثير الكيموسات الرديئة في اجسادهم ويذيب الكيفيات الخبيثة عن اجوافهم . وهي جامدة ويحلل الحرارة الغريزية عن احشائهم . فتذهب بها في الهواء المشاكل لطبعها ويترك اعماق اجوافهم هامدة خامدة ويولد في بشائرهم وظواهرهم القروح والجرب والحكة والحصبة والحميات الدموية والاعلال الحارة والخريف يطفىء هذه الامراض الدموية ويميت الحيوانات المعفنة ويفنيها او يجعلها كالفانية من السكون كالحشرات والهوام وهو الذي يعدل الطباع بميزانه ويسوي الامزجة في ابانه . وينعم الناس وسائر الحيوان بانواع نعيمه والوانه . وينصف النهار والليل عدلين مؤتلفين . ويجعل الغني والفقير بميرته مثلين غير مختلفين . فبيوتهم مملوءة حبوبا . وحبابهم مشحونة مشروبا . ونهارهم مشغول باقتناء المير والذخائر التي اوسعها عليهم الخريف لشتائها . وحضهم كل بكرة على اقتنائها . وليلهم ملهى بالشراب الطيب والفواكه اللذيذة والرياحين الارجه والخيرات البهيجه .

﴿ قال الربيع ﴾

اما ما ذكرت من الربيع وان حره يودى او يوذى بالانسان وسائر الحيوان ووصفت العلل الحارة كالحميات الدموية مثل السرسام ونحوها من شدة الاسقام فقد اوهمت . او وهمت . وتغافلت . او اغفلت . اذ الربيع في طبعه معتدل المزاج ولذلك قال جالينوس من لم يهزه الربيع فهو فاسد المزاج . محتاج الى العلاج . وانما يقع اكثرهذه الامراض في صميم القيظ وحميم الصيف الحار . وانما تاخذ الجار بذنب الجار . والربيع باعتدال طباعه والتئام مزاجه وانتظام احواله وائتلاف اخلاقه وافعاله يقوى كل طبع ويبعث كل مزاج وينبه من فسد بعض الاخلاط من مزاجه . ليتشمر في علاجه . ويحيى كل موات بعد ضياعه ومفتقده . ويضعف كل بال عن مرقده . ويذكر بالحشر . ويدل على صحة النشر . واما هذه الحشرات والهوام فان الله تعالى خلقها ولم يخلها من فائدة تعود بمصالح الخليقة ولم يخلق شيئا عبثاً بل كلها يختص بمنفعة للبرية وان سمومها اذا اخذت منها واخرجت تدخل في الادوية المجربة ويستعملها الاطباء في الادواء المؤذيه . ويستشفى بها في الامراض المرديه . ومع ذلك فانها اعنى الهوام والحشرات تجتذب من الارض وسائر الاركان السموم التي تخالطها مما يشاكلها . وتستلب منها ما تغتذى به مما يلائمها ويوافقها . فتبقى الاركان للنبات الذي يحتاج اليه الحيوان صافية عن كل شائبة وقذى . ويخلو النبات والاغذية نقية من كل عائبة واذى . واما ما قلت في الخريف وان يوسع على الناس وجميع الحيوان مآكلها واغذيتها . ويفيض عليها فواكهها ورياحينها وانبتتها . فهذا بان يكون من معائب الخريف اولى من كان يكون من مناقبه وهو احد الاسباب التي يكثر بها الاسقام المزمنة في الخريف فانه يستكثر الناس من اكلها فتستوبله طبائعهم

فيجلب المرض . اوالحرض او السبب له والعرض . ولا يحتمله مزاجه الذي انحله حر الصيف وانحله ضرم القيظ واستصفته وقدة الهواء . كما يستصفي التنور المسجور رطوبة الشواء . وحلل حرارته الغريزيه . وفش تخونته الطبيعية . حر الفصل فلا يطيق ما يأكله بالخريف ولا يحتمل ما يناله فيستوخمه ويستوبله ويولد عليه الداهيــة الصماء من الامراض والمظلمة العمياء من الاوجاع ولذلك جاء في الخبر ان مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا او يلم . والربيع بحمد الله مقل من الفواكه المضرة والانبذة النيئة والاطعمة الوبيلة الوبيئه . والاغذية الوخيمة الرديئه . وغذاوه للناس من الخبز الخنطى النقي واللحم من الرضيع والشراب العتي العتيق المرى وتنقلهم بالفواكه التي قلما تعفن بمنزلة الرمان والسفرجل والتفاح ونحوها مما يبقى في الشتاء بقوته ومشمومهم من الورد الرائح اللائح . والنور العبق الروائح . والياسمين الذى ياخذ بطبع الربيع في اوانه فيكون حارا رطبا لا كما يكون في الخريف باردا يابسا مولدا الزكام . كقطر الزكام وموّرثا الصداع . يشق الراس بانصداع . وهما من خصائص الخريف اعنى الزكام والصداع ومسموعه من اغاني البلابل والقماري ونحوها التي يهزها الربيع برواحه التي تعبر عن العبير والعود والقمارى لان الربيع كما قال الزعفراني .

وفصل فيه للروض احتيال * لان جميع ما لبست حرير
وللاغصان من طرب تثن * اذا جعلت تغنيها الطيور

قال الخريف

يا فتى ما اعذب لسانك . واعجب شانك . واملحك في فصاحتك . وافطنك مع ملاحتك . حيث تعجزنا ببيانك الشهى . كما تسحرنا بلقائك البهى . فتاتى الى ما اجمع العالمون على استهجانه فتحسنه . وما اطبق الحكماء

على استحسانه فتعجبته فانه اتفق العاقل والجاهل والبار والفاجر على بغض الهوام المرديه · وفي الحشرات المؤذيه · وكراهتها واستقذارها · واستنجاسها واستنكارها · لما تعافه الطباع في احساسها بالابتداء · ولا تخافه المعارف من مضارها في الانتهاء · وانت تصفها بكثرة منافع ومصالح ونكابر العقول السليمه والعادات المستقيمه · بلسانك الحول القلب وظرفك المخلط المذيل وبيانك المعن المفن وما اتفق الناس على السعي فيه والحركة له والبقاء به والحرص عليه والحنين اليه · ومنافسة بعضهم بعضا لاجله وبالجملة ما به صلاح العاجل والآجل وفيه خيرات المعاش والمعاد حيث تعيبه وتذيمه · وتهضم رايك بذلك وتضيعه · وهو نعمة الله التي جعلها مادة الحياة وصورة البقاء لاجل من يستكثر منه فلا يستمرئه · وبسبب من يستعزر فيه فلايهنئه وتروى له الخبر الوارد في الربيع وتحيله عن حالته · وتقلبه عن قالبه وهيئته فانه قال ان مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا او يلم وانما قاله للمواشي دون الناس فان الربيع لا ينبت شيئاً ينالونه فيحبطون منه فويح لسانك انه حسام · الد الخصام · متهم المحامد قاذف المذام · اما الكلام في الحشرات والهوام فان استضرار الناس بها معروف وانتفاعهم بسببها منكر وغوائلها جليه · وعائدتها خفيه · واما ذكرت ان بسمومها يستدفع بعض الاخلاط الفاسدة فلعل تلك الاخلاط منها تولدت في النبات وبها اختلطت بالامتزاج والامتاج وبروائحها امتزجت بالحيوان فهذا ما بطن من حالها وما كمن من افعالها فاما الظاهر فان الافاعي والحيات · والعقائب والجرارات · ونحوها فهي قاتلة معطبة او موذية مؤلمة ولا تخلو من اتلاف · ولا تعرى من ادناف · واما النعم الطيبات التي جعلها الله رزق الخلق وانبتها في الحريف فهي مبتغاة مرتضاة محبوبة الى الخلق مقتضية وهي تشتهيها الانفس وتلذ الاعين وبها وعد المتقون في دار البقاء · واياها منى الابرار الى مثابة الثواب والجزاء · ولكنك اعطيت مبتدئا

ما استرددت منتهياً . واصلت قيلسا . تبنى عليه ثم هدمت منه اساسا .
فقلت بآخره ينال الانسان في الربيع من الما كل والمشارب والمشام
والمسامع كيت وكيت . وحكيت من طريق التنعم ما حكيت . وما افتخرت
الا بما اقناه الخريف واعطاه . ومهده للخلق ووطاه . وان لم يمكن به
الاستمتاع الى وقت الربيع وقد يبقى منه الكثير الى طلوع الخريف وقلما
يستمتع به المرتبع وذلك لانه مملوء بسخونة الهواء . الذي يمنع من استيفاء
الغذاء . ولا يهنأ ء ان نشط في الامتلاء . وهو مملوء باخلاطه الهائجه . وكيموساته
المائجه . ويعنيه من امرها مايثنيه عن تمتعه وبضجره بعمره . فضلاً عن تفقد
عيشه بالتنعم وتمهد امره . اللهم الا الاغنياء الذين يقل عددهم . وتكثر
عددهم . ولهم ايضاً حاشية وغاشيه . وعليهم غادية وعاشيه . فالحاجة عامة
والغنية والقنية في الربيع معدومتان ثم ان وجد واجد فهو كمعدوم لان
ايامه مشغلة مزحمة اولها من الحوائج البشريه . وهي مشغلة ومجحمة
اوسطها بالحرارة الشمسيه . وهي مبغضة ومقذرة آخرها من الحشرات
الارضيه . والقاذورات الهوائيه . والعفونات الربيعيه . وليله غفوة كحسوة
طائر . او قبسة عجلان او خلسة زائر . واما المحترف فنهاره بقدر مايكتسب
فيه ويقترف . ويعمل به ويحترف . ويقضي المهمات . ويكشف الملمات .
وليله للطرب . وقضاء الارب . والتنعم والعجب كل العجب ممن يستوخم
فيه ما يناله من الطعام . وهو يقوده باشهى الادام . ويسوقه باهنأ المدام
وذكر جالينوس ان الاوباء . التي تقع من العفونة تعم افناء الناس اهلاكا
وافناء . الا مدمني الخمر فانهم يتخلصون لان فضول الخمر لا تعفن .
فالخريف يمنع بالطيبات المطلوبه . والملاذ المحبوبه . ويصلح ما افسده
القيظ بمزاجه الحار اليابس بترطيب الشراب المرى . ويسوى ما عوجه
الصيف من النحول والذبول بتغذية الطعام المني . فهذا صلاح الخريف
وفساد الربيع

﴿ قال الربيع ﴾

لله انت من شيخ يبهر بل يبهت العقول . في ما يقول . ويعمي بل يعمه الذكي الفطن . بما يظهر مما يريد او يبطن . الا ان كلامه لا يعدو مناعم المطاعم او مطارب المشارب والشيخ مثلك يجب ان يقنع من الدنيا باللذات التي تروح الروح وتنفس النفس وتقر العيون وتسر القلوب وتطرب الافهام الذكيه . وتطري الاوهام الصفيه . من مباهج الربيع وملاذه وطيباته ومساره فكلما صعد الناظر فيه ناظره رأى وجهاً للسماء ببهجة البيضاء ابلج . وعيناً سوداء من ظلام الغمام ذات حدق ادعج . وهواء باعتدال قوامه وحسن نظامه جد سجسج . والشمس تسفر حيناً وحينا تتقد والسماء تخلع طوراً وطورا تنسحب والرعد يقهقه من برق يبتسم . ونبل الوبل يرتمي عن قوس في معارج الهواء تتلون وترتسم والسحاب كخليع من الفتيان يسكب دمعه وقد هزه طرب الراح . والنسيم نشوان والجو صاح . وكلما صوب ناظره الى الارض صعد بصره بوشي ديباج حكته يد الربيع ووشته . ونمنمته انامله بضروب من الرقم ونقشته . وطرزته من الورد باحمر رغما للياقوت واصفر غيظاً للعين . وابيض خجلا للدر واللجين . وصبغته اعنى الورد آونة على لونين ليتسلى به العاشق والمعشوق . ويتفاءل باجتماعها الشائق والمشوق . ومتعت منه طوراً باللين الناعم حاسة اللمس وتارة بالرائحة الفائحة حاسة الشم ومرة باللون الرائق الرائع حاسة البصر ثم جلت كل وقت عروسا من الرياض في الوان من الازهار . وانواع من الانوار . وقد غسلتها ايدي الغوادي ومشطتها لمقابض الروائح . وعطرتها من النسيم المسكي باطيب الروائح . فهي تختال وتتبرج . وتتعطر وتتأرج . وترفل من حللها وحليها بين مرقم ومنقط . ومسهم ومخطط . ومسير وملون . وموجه ومعين . ومقرط ومشنف ومتوج

ومعصب ومكلل ومزبرج . ومسك ومعنبر . ومصندل ومكفر . ومدرهم ومدنر . صبغة الله ومن احسن من الله صبغة وصيغته . ومن يأته بمثله صيغة لا صنعته . وهل له شريك في صنعته

وكأن السماء تجلو عروسا * وكأنا من قطره في نثار
وكأن الرياض تنظر الفا * وكأنا لحسنهـا في نظار

فالربيع انموذج الجنان وترابه المسك الاصهب . والعنبر الاشهب . والكافور الازهر . وهواؤه لا حرّ ولا قر . وماؤه كوثر . وانهار من ماء غير آسن وانهار من عسل مصفى وانهار من خمر لذة للشاربين كذلك ماء الربيع خلوقي في اللون عسلي بالذوق خمرى بالصفاء والاستمراء * واما ما ذكرت من اعتدال زمان الخريف المسوى بالميزان فهذا الاعتدال بالحقيقة موجود في الربيع فانه معتدل الليل والنهار والاصائل والهواجر وذلك الاعتدال الذي هو الاوقات موجود ايضاً في الكيفيات لاستوائها في الوزن من الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة وهو مرضى *والاعتدال الذى للخريف مسخوط الكيفيات لخروجها عن الاعتدال الى البرودة واليبوسة فالربيع من الاركان بمنزلة الهواء في اعتداله ولطافته . ومن احوال العمر بمنزلة الصبي في طراوته وطلاوته ومن الاخلاط بمنزلة الدم في عذوبته وحلاوته . لانه شباب الزمان . وريعان الاكوان . وعنوان العام . وعنفوان الايام . وباكورة العمر . وبكر الدهر . وانف الكاس . ورأس النفس بل هو عين كل رأس . ومطلع القصيده . واول الجريده وبالجملة الربيع لب الزمان والخريف قشره والربيع نقيه والخريف عظمه والربيع صفوه والخريف كدره والربيع سلافه والخريف عكره والربيع ندبه والخريف درديه والربيع انفه والخريف ذنبه . ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا . والربيع صدره والخريف عجزه وليست الاعجاز مثل الصدور

﴿ قال الخريف ﴾

تبين اي الفصلين اكثر مناعم . واوفر مكارم . واوفى اغناء واقناء واقنى اعطاء وايلاء . واصفى ابتداء وانتهاء . وكل منا يمدح صاحبه ومن يمدح العروس غير اهلها ويذم قرنة ولا تعدم الحسناء ذاما فعلينا ان نبين وجه التفضيل بخصائص كل منهما وانت تدعي ان الربيع ابين صفاء واحسن اعتدالا واولى التئاما . وابلغ انعاما . اما الاعتدال بالذات فغير موجود للاشياء الكائنة الفاسدة لانها لو اعتدلت وتكافأت قواها . وتساوت اجزاؤها . لامتنعت عن الفساد . لان كل واحد منهما منع صاحبه عن القهر والعناد . واما الاعتدال بالاضافة فانه يكون فلنبحث عن الفصلين ايهما ابين اعتدالاً فقد علمنا ان الربيع اوله عند مبلغ الشمس رأس الحمل والحمل تاثيره بالحرارة واليبوسة ولفضله برودة ورطوبة ورثهما عن الحوت الذي استدبره وبرودة ويبوسة يستفيدها من الثور الذي يستقبله والميزان في نفسه تاثيره الحرارة والرطوبة ولفضلة برودة ويبوسة مستفادة من السنبلة التي استدبرها وبرودة ورطوبة من العقرب التي يستقبلها فاذا قوبل كل واحد منهما بصاحبه ساوى الحوت والعقرب والثور السنبلة في كيفياتها وبقي الحمل في نفسه حارا يابساً لانه بيت المريخ وشرف الشمس وناهيك بما لها من الحرارة واليبوسة والميزان بيت الزهرة وهي احد السعدين فبقي للميزان الاعتدال ولذلك سمي به لان فصل الخريف استفاد من الصيف حرارة ويبوسة ويستقبل من الشتاء رطوبة ويبوسة وهو في نفسه حار رطب * واما تشبيهك اياه بالشيخ وتشبيه الربيع بالصبي ثم تفضيل الصبي على الشيخ فهو امر غريب ومعنى بديع وهب ان الخريف في طبع الشيخ والربيع في طبع الصبي أفي الدنيا احد يفضل الصبي على الشيخ فان للصبي رطوبة موجية مضطربة تمنعه عن جودة ادراك المحسوسات

فضلاً عن ادراك المعقولات والشيخ ذهبت عنه رطوبة الصبي وانفصلت
منه حرارة الشبيبة المفرطة واعتدلت كيفياته وتكافأت قواه وتساوت
احوال مزاجه فلذلك يكون ادرك وادرى . وابلغ وابلى . والطف والطى
واذكروازكى . وشبهت طبع الربيع بطبع الهواء فلعمري ان الميزان اليق
بهذا التمثيل من الحمل لو انصفت فان المنجمين والاطباء اطبقوا على قولهم
ان الميزان هوائي اي له طبعه وكذلك الدم * واما ما ذكرت ان الربيع
استبد بالورد والنور والزهر واختص بالشراب الصافي والماء الخلوقي والهواء
الرقيق والسماء المبرقة المرعدة فقد علمنا ذلك *اما الورد فقد يكون ايضاً
في ايام الخريف وخصوصاً النسترن وهو اطيب الوانه وكذلك النور والزهر
وكلها في الخريف اطيب منها في الربيع لان رائحتها محصورة فيهـا غير
منبعثة عنهـا وان كان الربيع يزهى بالورد السريع الورود العاجل
الصدور الذى لا يتشممه الشام صالحا واذا هو ذابل ولا يشمه اللامس
وافيا واذا هو ذاوٍ ولهذا يعير العشاق معشوقيهم بالانتقال
عن العهد . والزوال عن الود . ويشبهونهم بالوردويتشبهون بالآس
وانما منعهم ان يتشبهوا بالنرجس مع بقائـه . وحسن عهده
ووفائه . لانه يكون تزكية لانفسهم وتفضيلا لذواتهم على
معشوقيهم بالحسن الرائع البهج . والطيب الريح الارج . والطرف الفاتر
الغنج . والقد المستوى المتعرج . هذا مع بقائه ووفائـه وامتاعه بنفسه
جملة اشياعه واتباعه والخريف مختص به وبالزعفران ايضاً وهو من الحسن
والطيب . والتفريح والتطريب . والنفع في ادوية كثيرة ومعاجين جمة
وزرائر عزيزة ما لا خفاء به وله مدخل في عداد العطر والطبخ والادوية
واصلاح الاغذية وتطييب المآكل ويبلغ في التفريح مبلغاً لا يدركه شيء
الا الخمر وقد يلقى فيها ويسقى الشارب تعمداً فيصير به ضاحكا آتياً
بعجائب . من المطارب والملاعب . * واما الشراب الصافي فقد يكون

ايضاً في الخريف اصفى واعتق منه في الربيع ويفضل الخريف بالحديث الطرى وما للربيع فمن الخريف استفاد وكل خبير له من عنده والشرب من اوفق الاشياء بالخريف وهو اصلح منه في سائر الفصول لان الشراب فعله التسخين والترطيب لان هذا الفصل مكتس ومكتسب من الصيف يبوسة ومن الشتاء برودة فيكسر سورتهما به ويفل غوائلهما بسببه وهو ضار في الربيع لان فصله اجتلب رطوبة من الشتاء واكتسب حرارة من الصيف فلا يقوى على حرار في الشراب والفصل ورطوبتيهما فلا تحتملهما طباعه ولا يستقل بهما مزاجه وهو ضار ايضاً في الصيف لافراط الحرارة وفي الشتاء ايضاً لكثرة رطوبته فاوفق الفصول للشراب الخريف وتعديل المزاج فلما يتأتى الا لمن يتعاطى الشرب هذا مع ما فيه من الطرب والسرور والفرح واجمع الاطباء انهم ما وجدوا شيئاً يقوم مقامه في تعديل المزاج وتسوية القوى بلا مضرة واجتلاب الفرح والمسرة اذا اخذ على وجهه منه ولذلك قال فيه القائل

هما ماهما لم يبق شيء سواهما * حديث صديق او عتيق رحيق
وهونت حلو الحادثات ومرها * بحلو حديث او بمر عتيق

واما الماء الخلوقي الذى اعتددت به فما ادناه من اعتداد . واقصاه من سداد . واي خير في ماء اختلط بالطين . وامتزج بالتراب والصلصال المهين . فلا يمكن الشارب العطشان ان يقربه . فضلاً عن ان يشربه . واما البرق والرعد فاي فائدة في بارقه . ربما عادت شر صاعقه . وحرقت اشخاص كثيرة ولا تخلو من احراق قط اذا كثر حتى انه يذهب كثيراً من الاثمار مثل الكمثرى وغيره * واما الرعد فانه في قلة المنفعة كصوت الطبل بل دونه فان في هذا انذار بامر حادث وسلطان طارىء والرعد يهدم كثيراً من الابنية البرية ويفزع جماً غفيراً من البرية ولهذا يقال

لمن يتهدد بباطل فلان يرعد و يبرق كما قال الشاعر

ابرق وارعد يا يزيد فما وعيدك لي بضائر

قال الربيع

ما احسن كلامك لو كنت تراعيه فلا تنقض في القابل ما تبنيه في الغابر زعمت ان الخريف تأثيره بالحرارة والرطوبة لان الميزان يتولاه وهو هوائي دموي ثم جئت الى ذكر الشراب وقلت هو موافق في الخريف لان طبع الخريف بارد يابس وطبع الشراب حارّ رطب ونسيت ما ذكره الحكماء في طبع الخريف وانه بارد يابس مبرح · مكرب مترح · ولذلك كانت امراضه مزمنة واطباقهم كافة ان طبع الربيع حارّ رطب مفرح · مطرب مروح · ولذلك صارت الدماء به في الاجساد منبثه · والحرارة الغريزية منبعثه · وادعيت ان الشرب في الخريف اوفق واطيب واغفلت ان الشراب حار رطب وكذلك الربيع فالملاءمة بينهما اكثر · والموافقة لما به اوفر · والصحيح يتغذى بالمشاكل الموافق والمريض يعالج بالضد وهبك لم تعلمه اما شهد لك الحس الصادق بطيب الشراب المورد على الورد او ما سمعت ما قال فيه القائلون · وما تقلب في افانينه الشعراء والملهون او ما بلغك ان احدهم يحلف ابنا له ألا يشرب فلما بلغ الى آخره قال او زمان الورد ابضاً وامتنع من اليمين · ووثق ان يحنث فيه او يمين · وما حكى ان حائكا في زمان المأمون كان يعمل عمامة وقته اجمع اكتع لا يستريح ليلا ولا نهارا · ولا يجم سرا ولا جهارا · ولا يترك عمله في الجمعات والاعياد ولا يفتر عن شغله بالنوائب والمصائب فاذا جاء زمن الورد القى حفه وانشد شعرا واشتغل بالشرب اربعين يوما ووصفت حاله للمأمون فاجرى عليه ما اغناه عن عمله · واجزاء عن حياكته وشغله ·

ولو ذكرت كله لتعسر الخطب وطال الخطاب · وعرضت حبال المقال وامتدت طنب الاطناب · وانما قلنا ذلك لان الشراب والربيع يتزاوجان بالامتزاج · ويتحدان في الازدواج · فيقوى فعل الروح لاتخاذها بالراح وهذه هي علة الخمر في اجتلاب الفرح والاريحية والمزة التي تحدث للشارب وذلك لان الدم ينبوع الحياة ومطلع السرور بزيادة الحرارة الغريزية ولهذا يكثر الفرح والضحك في الصبيان ولمن يغلب عليه الدم وبهذا السبب بعينه يستولي الطرب على الناس في الربيع لانه فصل معتدل والغالب عليه الحرارة والرطوبة وهما طبع الدم الذي هو ينبوع الروح فقد تبين ان الربيع يزيد في الروح ويمد في الروح ولهذا المعنى اتفق اشتقاق الروح والراح والروح كلها من الريح معنى مصيبا واحسن ابن الرومي حيث قال

والله لا ادري لاية علة * يدعونه للراح باسم الراح

أ لريحه امروحه تحت الحشا * ام لارتياح نديمه المرتاح

ويسمى الدم ايضاً نفساً لهذا المعنى ولما كان الربيع الدم الذى هو مادة الروح وعنصر النفس يهيج الربيع الدم خاصة ويثير سائر الاخلاط عامة وفي اثارتها فائدة خفيت عليك وهي لكي يتدارك بالمعالجة والمداواة وشرب الادوية التي تجعل الاجساد منقاة من الفضول مصفاة مسواة والربيع ينشر حتى الجماد وينبت حتى الاحجار · فضلا عن الحشائش والاشجار · ويطلع الازهار والانوار · وينجم الاوراق والاثمار · ويظلل السماء بالمطارف الغبر · ويفرش الارض بالمطارح الخضر · ويحلل الجبال بالحلل الحمر · ويعقد على الرؤوس اكلة من الاشجار المتشعبة ويحلل بها نثارا من الانوار المونقة وينصب للطيور منابر تغني عليها وتذمر اطيب الاغاني والزمر · ويطيب للناس لذيذ العمر · فكانه يضمهم عرس واحد ويجمعهم دعوة جفلى · ويقربهم مأدبة فوضى · اوكان كلهم ملك

الارض باسرها وكأن ازهارهاوانوارها دراهم ولآل منثورة عليهم ووردهم وشقائقهم دنانير ويواقيت مبذولة لهم وكأن نباتها زبرجد وميناء وفيروزج متوجة اباهم وكأن امواهها الخلوقية صهباء عتيقة يشربونها فتطرب بها قلوبهم وترتاح وتنزاح بهاعنهم الكرب وتزول فهل يستوي هذا وقشف الخريف وظلمه وبسه وقتره وغباره وكدره وتقبيضه وعبوسه . وتقطيبه وبوسه . فعيون الناس فيه سائلة وعيون الارض جامدة ووجوه السماء مغبره . وخدود الخلق مصفره . وظواهر الجبال ومفارقها من هول البرد مبيضة وبواطن الورى وصدورها من كرب الخريف مسودة والشمائل من الارواح عاصفه وشمائل البرية بالارواح عاسفه . فهذا حال الاغنياء منهم فكيف ظنك بالفقراء . الذين ما لهم غطاء ولا وطاء . واني مخيلتك في الغرباء الذين ليس عندهم ثاغية ولا راغية ولهذا كان عمر رضي الله عنه اذا اظل الشتاء كتب الى كل ناحية جاءكم العدو الحاضر فاستعدوا له واذا سفر الربيع نقابه واكتسى جلبابه ارتاحت لمقدمه القلوب وانتفت الغموم عمن لا يملك قيد سبد ولا لبد . ولا ياوى الى والد ولا ولد . واما وصفك طبع الربيع بالاعتدال فالله كافيك وحسبك انك تقول شيئاً وتعلم خلافه وتظهر معنى وتضمر سواه وان يدري جميع الناس انك تموه فيه . ومزخرف في ما تخلصه منه وتستصفيه . اوما يخاف الكذوب ان يذوب والفصل المعتدل لا تزمن امراضه . ولا تدمن اوجاعه ولا تقتل اعراضه وهذه قصيرة من طويلة

﴿ قال الخريف ﴾

حاصل كلامك ان الربيع ينبت ويورق . ويزهر ويرعد ويبرق . وبق ان تنظر ما الشيء الذى يثمر ويجنى ويطعم . ويحصد ويقطف

وينعم بنعم . ويزرع ويبذر . ويربي ويوفر . وليس ذلك الا الخريف وتفضيل الخريف على الربيع امر متفق عليه قد صنفت فيه كتب سائره . ودونت به اشعار في ايدي المتادبين دائره . * فمن ذلك ما كتب علي بن حمزة الى ابي الحسن بن طباطبا العلوي فقال * الخريف ثمرة الربيع كالشجرة التي تثمر ولولا الثمر لم تكن في الشجر فائدة وفي الخريف تحصل اصناف ما يتمول وما يدخر من اقوات الخلائق الممسكة ارواحها الى الخريف القابل وفيه يكون الزعفران وله على جميع انوار الربيع فضل وله ورد يطلع كنصل السهم الناوكي وقرن الخشف في لون الياقوت الازرق . واللازورد المونق . كالعيون الشهل واعراف الطواويس المتجلة ويتفتح عن شعر كخيوط الذهب والخطوط الحمر . في اغلاف الحلل الخضر . وكشرر نار يلوح من حدائق البنفسج كألسن الحيات المنضنضة ويطلع ورد الزعفران البرى في السنة مرتين ربيعاً وخريفاً غير ان البري لا يكون له نور الزعفران المستعمل وحشيش الزعفران يشبه اذناب الخيل ويصبر على البرد فيبقى اخضر ناضرا والدروع مصفرة وله اصول كعقد من العاج وفلك مغازل الابريسم ويبقى تحت الارض طويلا فلا يتغير متدثرا بخمل كصوف الخزوليف جوز الهند * وفي الخريف يجد النخل . ويجمع اعسال النحل . وتقطف الاعناب التي فيها المنافع وفيه اجتناء الاقطان التي منها لباس الناس وزينتهم احياء . وسترهم بعد الفناء . وفيه يقطف اللوز والجوز والعناب والنبق وغير ذلك مما يعم نفعه وفيه تتلاحق ذوات الاظلاف الانسية والوحشية وفيه مطارح البزاة وفيه ينضج الاترج واوراقه تشبه شقق الفريد اذا خطرت فيه الرياح خفقت خفق المطارف الخضر وله ورد كالفاغية وهي ثمرة الحناء وتتفتق عن مثل خرزات الزبرجد ثم يعظم وتشوب خضرتها صفرة الرحيق الاصفر فاذا خلصت الصفرة صار ذلك كقلال ظاهرها ذهب وباطنها فضة فيها حب كاللؤلؤ والمرجان وقشره ينفع المصمود وله اذا حرك

عرف يفوق ارج رياحين الربيع ويستخرج منه دهن اذكى من النار وله حماض لذيذ يطيب القدور وينفع المحزون واذا تصرمت الرياحين في الشتاء فالاترج غض طري وقد اجتمع فيه وفي العنب الطبائع الاربع فوصف الخريف وذكر فضائله واقتص خصائصه كما ترى في النثر واما النظم فمن ذلك ما قاله ابو الحسن ابن الرومي من قصيدة

لولا فواكه ايلول اذا اجتمعت * من كل نوع ورق الجو والماء
اذا لما جفلت نفسي متى اشتملت * عليّ هائلة الحالين غبراء
ياحبذا ليل ايلول اذا بردت * فيه مضاجعنا والريح مجواء
وجش القرفيه الجلد واشتملت * من الضجيعين احشاء واحساء
واسفر القمر الساري بصفحته * وربالها من صفاء الجو لألاء
ياحبذا نفحة من ريحه سحرا * يأتيك فيهامن الريحان امضاء
بل فيه ما شئت من شهر تعهده * في كل يوم يد لله بيضاء

ومن ذلك ما قاله عبدالله بن المعتز

اشرب على طيب الزمان فقد حدا * بالصيف من ايلول اسرع حاد
واشمنا بالليل برد نسيمه * فارتاحت الارواح في الاجساد
وافاك بالانداء اقدام الحيا * والارض للامطار في استعداد
كم في ضمائر تربها من روضة * بمسيل ماء او قرارة واد
تبدو اذا جاد السحاب بقطرة * وكأنما كانا على ميعاد

وقال ابو عمر عبدان القرشي يصف الخريف ويفضله على الربيع

وارى الربيع عيون قوم اغفلت * طيب الخريف وسجسج الاسحار
ان كان ذاك لواضحات دراهم * بين الرياض نثرن من اشجار
فلها نثار في الخريف يفوقها * حسنا على الجنات والانهار
تحكي دنانيرا لنا اوراقها * ولها فضيلة مطعم الاثمار

وخلا الربيع فما لنا فيه سوى الارواح والانوآء والامطار
ومخافة الارعاد اثر صواعق * ترمي البلاد واهلها بالنار
فاسعد بتشرينين وانعم منهما * متعوذا بالله من آذار
واشرب على ورديهما مشمولة * من زعفران طالع وبهار
يغنيك عن ورد الربيع وعرفه * عن شم طيب لطيمة العطار
ياحبذ ايلول جاء مبشرا * بالخصب بعد المحل في الامصار
والشمس فيه وفيهما ميزانه * حلت لوزن عادل المعيار
اخذ النهار وليلنا حظيهما * فالليل عن وزن كفاء نهار
وكفاك في ذم الربيع رواية * ينبيك عنها حامل الاخبار
فاذكر كلام نبينا في قوله * صلت عليه ملائك الجبار
اذ قال هل بخروج آذار لنا * خرف القيامة فيه من بشار

وقال ايضاً يصفه

آذار جوك للغيوم مسخر * اذ لست انت لنا الخريف الازهر
وضر الشتاء بنا اضر وبرده * فابعد رشيدا انت منه اوضر
ركدت غيومك في السماء كأنما * غطى عليها منك لبد اغبر
هذاك اول برده متزايدا * من ظل كانونين مرا اكدر
والشمس عن نظر الورى محجوبة * فكأنها عذراء او هي استر
تغدو وتمسي في اسار اصايب * ولما متى طلعت شعاع اعبر
ما بين نيسان وبينك عامنا * ضاع الربيع وضل ذاك المنظر
فمتى نرى ملء السماء وثوبها * الا لبود لازورد اخضر
ومتى يقل بكاؤها وربوعنا * من دمعها خربت وهذا اهدر
ومتى ترى شمس السماء شماته * بالغيم يبسمها شعاع انور
او ليس لليلك والنهار تساويا * والشر فيك من المنايا اكثر

والفصل يؤذن بالحياة وطيبها * ما بالنا فيه نموت ونقبر
عاما ارتك عجائباً ايسامه * عين التفكر فيه ليلا يسهر
فيه وسيف الماضي كسوف سنة * كل على الانسان منه يحذر
موت الفجاءة والخوانيق التي * كلاً اصابت بالمنية تنذر
احكام كل من شهور ستة * عن قول بطليموس ذلك يؤثر
منها ثلاث قد مضت وثلاثة * فيها لمن ينجو ويعبر معبر
ان المنجم والطبيب تعجبا * اذ لم يكن في العرف مما يذكر
والفيلسوف بذاك ايضاً جاهل * فهم جميعاً سيف المنايا حير
ان كان ذلك في الورى في دورها * سنتين ان صدقت بما قد خبروا
لكن اقول اذا اراد الهنا * امرا اليه يصير عبداً يؤمر
لا تكذبن فاننا بقضائه * طوع الردى حتماً نموت وننشر
والفوز في الدنيا والاخرى للذي * منا على البلوى المحض اصبر

وقال ايضاً في فضل الخريف على الربيع

فضل الخريف على الربيع وحسنه * ان عم كل مدينة آثاره
وله مناظر حسن ذاك وزادنا * طيب الفواكه كلها اثماره
يصفو الهواء لنا ويبرد ماؤنا * ويطيب مرقدنا وتخمد ناره
نلتذ فيه صبوحنا وغبوقنا * عبق النهار ومبجسج اسحاره
وارى المخالف ذا قياس فاسد * قد ضل لما راقه انواره
اذ قال ضاحي النور فيه دراهما * ما للخريف على الرياض نثاره
غفل الركيك عن المجالس كلها * فيه اذا ما دنرت اشجاره
وتناثرت اوراقها مصفرة * كالتبر اخلص فاستنار نضاره
والمهرجان نخصب بنعيمه * فاذا تنورز مقحل آذاره
وتخاف وقع صواعق وبوارق * فيه وهدم رباعنا امطاره

وكذا المياه وهد واديها بها * مهما جرى وتدفقت انهاره
والمهرجان فورده عن ورده * مغن يفضل حسنه نظاره
اذ كان فيه منافع ولطيبه * لم يخل منه طيبه عطاره
والشمس في الميزان فيه يستوي * للوزن عدلا ليله ونهاره
يسقيك من حلب الكروم جديده * سلسا بلا مزج يطير شراره
لا غول فيه ولا اذى لخماره * لا كالعتيق مصدر مصطاره
فاشربه مغتنما لروح زمانه * ودع الشقي موفرا اوزاره
وارتد له طيب الغناء ومزهرا * تشجى فؤاد متيم اوتاره
والزمر لا تقرع به اسماعنا * ان الغناء يعيبه مزماره
هذا الزمان وما سواه دونه * لفتى تساعده به اوطاره
ان كان ينكر جاهل هذا بلا * عقل فليس يضيرنا انكاره
فاذا اتى النيروز فاقض حقوقه * ما دام يسعد ورده ازهاره
واذا رجوا فيه القيامة فارج ان * يأتي بوشك خروجه بشاره
وارقب طلوع النجم حتى ينقضي * نيسان تأمن ان دنا اياره

وقال الباذاني في نعت الخريف

واسعدك الله بالمهرجان * اذا ما انقضى عنك عاما يكر
ولا زلت في عيشه كالخريف * فان الخريف جميعا سحر
ترى الماء فيه وذاك الهواء يجلوهما نسم ريح عطر
ترى الزعفران باعطافه * يفوح التراب له المقشعر
واترجه عاشق مدنف * اذا ما رجا طيب وصل هجر
ولون سفرجله حائل * واحسبه من صدود حذر
وتفاحه فوق اغصانه * خدود خجلن لوحي النظر
وما كنت احسب ان الخدود * تكون ثمارا لتلك الشجر

وقال آخر

فهناك اقبال الخريف عليك بالزهر الجنى
تم اعتدالا في الكمال فجآء في خلق سوي
فاق الربيع بحسنه * ونسيم رياه الذكى
و ينوب ورد الزعفران به عن النور البهى
اهدى اليك المهرجان عيس في زى الهدى
قد ضمخمت بالزعفران وهيئت في حسن زي
وتحلت التفاح والاترج في نظم الحلى

قال الربيع

ما كنت اظن انك ترضى بحكومة الشعراء وتقنع بالاشعار الركيكة في هذا الباب وتكيل علينا بهذا الصاع · بل تهيل بالباع والذراع · فهاك منها السيل الذي يحكي سيل الربيع · فاما رسالة ابي الحسن على بن حمزة ابن عمارة الاصبهاني فهي مقابلة برسالة له اخرى في وصف النيروز كتب بها الى ابي مسلم محمد بن بحر فقال

هذا يوم عجمى مشرق الارجاء · بهي الرواء · ممتع الذكاء · منير السماء · صافي الهواء · اعتدل مزاجه واستوى ليله ونهاره ترتاح له القلوب وتهتز له النفوس وتستريح اليه الارواح يروق العيون ويؤنس القلوب · ويجلو الكروب · يوم مصطلح في تفضيله على الايام يهيج السرور ويصبي الكبير ويطرب الحليم ويذكر الشيب الشباب ويجمع المتفرق ويؤلف المتنافر ويدني المتباعد له نسيم المسك المشوب بالعنبر المداف يضاحك ارجوانه اقحوانه وجلناره بهاره وخيره ياسمينه وورده نرجسه فتبرج بعد التعنس · وتنضر بعد التيبس · وابتهج بعد التعبس توشح بالزبرجد وتازر بالاستبرق وتحلى باليا قوت والمرجان · ونفى عن الفتيان خواطر

الاحزان · فهممهم عليه موقوفه · واشغالهم اليه مصروفه · وقلوبهم بالملاهي فيه مشغوفه · وعيونهم اليه رواني · ونفوسهم عليه حوان · والظبا فيه تتنازى والطيور تتبازى · وناطقها فيه يطرب فيرتجل الاغاني ويقرب الاماني ويغني الشرب فيه عن كل صوت شج مطرب اذا تحاذت تطارحت الالحان بفصاحة سحبان · وخالد بن صفوان · فرجحت الاغصان بالنبرات والنغمات فهن بمخضرة الرياض ساجعه · وعيون الحوادث عليها هامعه · فمتى حطرت الرواعد ولمعت البوارق مرت الصبا اخلاف العهاد فاهتزت له الربا والوهاد · وتلفعت بورود اليمن وتبسمت الارض عن ثغور الاقحوان · بكتها دموع الغيث في خير اوان · واجل زمان · وتمايلت البقاع بالازاهير الناضرة تمايل النشوان · يميس في الارجوان · واختالت القيعان والجنان · ببدائع الالوان · زاهرة بانواع نوار الغياض · واصناف اصباغ الرياض · من شقائق حمر ترف بقطرات الدموع كالمشتاق · وفواقع صفر كالوان العشاق · وازاهير رائقه · مشنفة مونقه · مونسة هي الدهر ضاحكة لبكاء السماء محيطة بواد الزرنروذ وهي كالمقرم الصائل اذا جرجر ورمى بلعابه والضيغم الهائج اذا زمجر وزأر في غيله فاذا اصطكت امواجه · واطبق ضجاجه · وهمهم وزخر وجاءت اواذيه معتجرات بمطارف دكن اقبلت ضروب نباته عائمات متوشحات بتهاويل رقها المنمنم زهره مختالات عائلات بمجانفة الامواج آمنات شبا الجوارح فنسأل الله تمام النعمة واليه ارغب في ان يجعلك بالنعمة تماما · وللمكارم نظاما · وللدنيا قواما · بمنه

﴿ ووصف علي بن عبيدة الريحاني الربيع فقال ﴾

الربيع رشيق القد طلق الوجه كريم الاخلاق لين الاعطاف حلو الشمائل · جم الفضائل · عطر الرائحة سليم الناحية فاخر البزة بهي المنظر

سرى الخبر . ﴿ ووصفه ابن ابي طاهر فقال ﴾ الربيع تام الجمال . حسن الدلال . عظيم الخطر . لطيف النظر جميل الذكر . ذكي العطر لذيذ النسيم . طيب الشميم . غزير النعيم . قليل الهموم . ظليل الغموم واما النظم فالقصيدة الاولى الالفية مقابلة بمثلها من قول بعض الشعراء

طلع الربيع بغرة زهراء * تجلى العيون بها من الاقذاء
وبدت وجوه الارض بعد قطوبها * مفترة ببدائع الآلاء
فالارض في حلل وحلي مونق * في ما حبته به يد الانواء
والروض يضحك عن بكى وسميه * بتلألؤ من صنعة الانداء
وترى الرياض كانهن عرائس * يرفلن من صفراء في حمراء
اوما رأيت الارض غبراء الربى * حتى اغتدت في بردة خضراء
ان الربيع لبهجة الارض التي * منها تكون جوهر الاشياء
وله هواء كالهوى من رقة * دقت عن الاوهام والاهواء
واذا تنفس بالنسيم نسيمه * كتنفس الصبوات في الاحشاء
زمن جديد للسرور مجدد * فيه استحلت حرمة الصهباء

واما القصيدة الدالية فهي مقابلة بما قال الحمدوى

حي الربيع فقد اتاك حميدا . بدلت من خلق الزمان جديدا
خلع السحاب على الثرى وشياً ترى . منه الثرى ذا ثروة محسودا
روض افادته السحاب صنائعاً . اضحى بها كل البلاد سعيدا
نشأت سحابته عليه فانشأت . نورا تراه ناشئاً ووليدا
فكانها عدن لدى اكنافه . قد نشرت فيه التجار برودا
عن اقحوان ضاحك متبسم . يفتر عن برد يخال عقودا
فثغوره من لؤلؤ ولثاته . ذهب بريق سحابه قد جيدا
ومعصفرات من شقائق البست . مقلاً ترى فيها محاجر سودا

فانهض بطرفك حيث شئت تجد له . من عطفه وردًا يخال خدودا
تحكي لك الوجنات قد اشعرتها . خجلا فتشرب لونها توريدا
قد وشحت اكنافه ببنفسج . خنث يغازل غانيات غيدا
وترى العذارى من بهار باهر . للشمس تحسب نظمهن فريدا
زهر يظل الطرف في اكنافه . حسرا لرونقه النضير بليدا
فاذا الرياح مشين فيه ظللن من . كسل النعيم رواكعًا وسجودا
يصددن صد متيم متهزم . انحى له عذاله تفنيدا

واما القصيدة الرائية الاولى فمقابلة بما قال ابو تمام وبينهما بون بعيد

رقت حواشي الدهر وهي تمرمر . وغدا الثرى في حليه يتكسر
نزلت مقدمة المصيف حميدة . ويد الشتاء جديدة لا تكفر
مطر يروق الصحو منه وبعده . صحو يكاد من الغضارة يمطر
غيثان فالانواء غيث ظاهر . لك وجهه والصحو غيث مضمر
يا صاحبيَّ تقصيا نظريكما . تريا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهارًا مبصرًا قد شابه . زهر الربى فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى اذا . جاء الربيع كانما هي منظر
اضحت تصوغ بطونها لظهورها . نورًا تكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة ترقرق بالندى . فكأنها عين اليه تحدر
محمرة مصفرة فكأنها . عصب تيمن في الوغى وتمضر
من فاقع غض النبات كأنه . در يشقق قبل ثم يزعفر
او ساطع في حمرة فكأنما . يدنو اليه من الهواء معصفر
صبغ الذي لولا بدائع لطفه . ما عاد اصفر بعد اذ هو اخضر

والقصيدة الثانية الرائية مقابلة بما قال البحتري

أَلم تر تغليس الربيع المبكر . وما حاك من وشي الرياض المنشر

مررنا على بطياس وهي كانها · سبائب عصب او زرابي عبقر
كأن سقوط القطر فيها اذا انثنى · اليهـا سقوط اللؤلوء المتحدر
وفي ارجواني مر‌ن النور احمر · يشاب بافرند من الروض اخضر
اذا ما الندى وافاه صبحًا تمايلت · اعاليه مر‌ن در نثير وجوهر
اذا قابلته الشمس قلت التفاتـة · لعلوة في جاديها المتعصفر

والقصدة الثالثة مقابلة بما قال ابن المعتز

اما ترى بهجات الروض في السحر · فوق الندى واتساق الورد في الشجر
اذا السحاب سقاها في الدجى خلعت · بعد السحاب عليها الشمس في البكر
والروض من زاهر زاه بنظرته · وكامن منه في الاغصان منتظر
حسبي من الورد توريد الخدود كما · حسبي مسرة محسود من البشر

والقصيدة الرابعة الرائية مقابلة بما قال ابن الرومي

اصبحت الدنيا تروق من نظر · بمنظر فيـه جلاء للبصر
وهالما مصطنعا لقد شكر · اثنت على الله بآلاء المطر
والارض في روض كافواف الحبر · تبرجت بعد حياء وخفر
تبرج الانثى تصدت الذكر

هذا ما قيل من الاشعار · ولو استقصيت ما قيل في فضل الربيع لادى ذلك الى الاكثار · ويكفيك من فضائله انه ما ينبغ شاعر الا وله شعر في الربيع واما الآثار · التي جاءت بها الاخبار · فكثيرة ايضاً والنوروز الذي هو عنوان الربيع تعظمه الفرس على سائر الايام وتقول انه يوم فيروزي روحاني فيه تحركت الافلاك السبعة بعد ان كانت ساكنة وفيه دارت الكواكب السبعة في افلاكها بعد ان كانت واقفة وفي ساعة منه يزخر فلك فيروز بمعاني الارواح لانشاء الخلق وفيه خلق جرم الشمس ولذلك يقال اسعد ساعات النيروز ساعة الشمس * وقال الحسن

ابن سهل سال المأمون علي بن موسي الرضا عن النيروز فقال يوم عظمته الملائكة والانبياء والملوك فالملائكة عظمته لانهم فيه خلقوا والانبياء عظمته لانه اول يوم طلعت فيه الشمس والملوك عظمته لانه اول يوم من الزمان * وعن عبد الصمد بن علي بن عبد الله رفعه الى جده عبد الله ابن عباس قال اهدى الى النبي صلى الله عليه وسلم في يوم نيروز جام فضة عليه حلاوة فقال ما هذا فقالوا يوم النيروز فقال وما النيروز فقالوا عيد الفرس فقال نعم اليوم الذي احيا الله فيه العسكرة قالوا وما العسكرة قال القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف فاحياهم الله في هذا اليوم وردّ عليهم ارواحهم وامر السماء فامطرتهم مطرًا كالشنف فلذلك اتخذ الناس صب الماء في النيروز سنة فاكل الحلاوة وقسمها بين اصحابه وقال نيرزوا لنا كل يوم * ويقال ان في النيروز اظهر جم الملك مقادير الاشياء وتتبرك الفرس صبيحته قبل الكلام بان تلعق ثلاث لعقات من عسل وتتبخر بثلاث قطع من شمع وتزعم انه شفاء من الف داء زعم بعضهم ان من ذاق السكر صبيحته قبل الكلام وادهن بالزيت دفع عنه في عامه انواع البلايا

✱ قال الخريف ✱

رويت لنا يا بني اشعارًا في صفة الربيع وفضائله . وما تعرضت لنقص الخريف ورزائله . وعلى المناظر ان يقوى حججه ودلائله ويوهن براهين خصمه وشواهده ليتضح الحق ويفتضح الباطل كما فعلنا ذلك وان لم نستوفه واتينا على جمل من ذلك ولم نستقصه * واما ما ذكرت من فضيلة النيروز فللمهرجان ايضاً فضائل لا تحصى ومناقب لا تستقصى تزعم الفرس وغيرهم من الامم انه يوم خلق الله فيه الاجساد قرارا للارواح

وفيه دحا الارض دحوا ونشر الخلائق وهو يوم افريشوني وعيدافريذوني وفي ساعة منه يتنفس ملك افريغون لتربية الاجساد وفيه خلق الله القمر يوم خلقه كرة سوداء فاذا كان يوم من المهرجان جلاها بضوئه ويقال ان القمر في المهرجان يوفي على الشمس واسعد ساعاته ساعة القمر ويقال ان قلة جبل شاهين ترى طوال ايام الصيف سوداء حتى صبيحة المهرجان ترى بيضاء كأن الثلج عليها وزعم المؤبد انتوكلي ان يوم المهرجان يطلع الشمس بهامير الواسط بين النور والظلمة وتحرك الارواح في الاجساد ولذلك سمته الفرس ميركان وتيمن الفرس صبيحة المهرجان باكل الرمان وشم ماء الورد وهو يوم افريذوني مر افريذون في طلب بيور اسف فظفر به يوم المهرجان الاكبر

فهذا ما حضر من فضائل الخريف واولاها واولاها بان يذكر ان الخريف في هذا الوقت الذى نحن فيه حاضر لخدمة قوام الملك ونظام الدين اطال الله بقاءه . وادام في درج المعالي ارتقاءه . والربيع غائب عن حضرته . انسها الله بدوام نعمته . مشتاق اليها والحاضر خير من الغائب والموجود خير من المعدوم

فهذا آخر ما جرى بين الشيخ والفتى وافترقا بعد ذلك والسلام والحمد لله
اولاً وآخرا . وباطناً وظاهرا . والصلاة على النبي محمد وآله
اجمعين وكتب يوم الخميس في ثاني عشر ربيع الآخر
سنة احدى واربعين واربع مائة
(كذا باصله)